من روائع الإيجاز والبديع
في القرآن الكريم

إعداد

الأستاذ المشارك الدكتور

أشرف حسن محمد حسن الدبسي

أستاذ البلاغة والنقد المشارك بكلية اللغات جامعة المدينة

عميد الدراسات العليا

1437هـ/ 2016م

من روائع الإيجاز والبديع
في القرآن الكريم

إعداد

الأستاذ المشارك الدكتور

أشرف حسن محمد حسن علي الدبسي

أستاذ الأدب والبلاغة والنقد المشارك بجامعة المدينة العالمية

عميد الدراسات العليا

الطبعة الأولى

1437هـ/ 2016م

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المحتويات	ج
الإهداء	و
المقدمة	1
الفصل الأول: الإيجاز في القرآن الكريم.	3
تمهيد	4
المبحث الأول: الإيجاز في آيات القرآن.	5
المطلب الأول: إيجاز القصر.	5
أولاً: إيجاز القصر:	6
ثانيًا: من إيجاز القصر في القرآن الكريم	6
المطلب الثاني: إيجاز الحذف.	14
أولًا: الإيجاز بالحذف.	14
ثانيًا: صور من الإيجاز بالحذف في آيات القرآن.	19
أولاً: الإيجاز بحذف جزء جملة.	20
1- الإيجاز بحذف حرف.	20
2- الإيجاز بحذف المبتدأ.	23
3- الإيجاز بحذف الفعل.	25
4- الإيجاز بحذف المفعول.	27
5- الإيجاز بحذف متعلق الفعل.	29
6- الإيجاز بحذف المضاف.	30
7- الإيجاز بحذف الموصوف:	34
8- الإيجاز بحذف الصفة.	35
ثانيًا: الإيجاز بحذف جملة.	36
الإيجاز بحذف جواب الشرط.	36
ثالثًا: الإيجاز بحذف أكثر من جملة.	38
الفصل الثاني: البديع في القرآن الكريم.	41
المبحث الأول: البديع نشأته وتطوره.	42
المطلب الأول: تعريف البديع.	42
المطلب الثاني: نشأة علم البديع.	43
المبحث الثاني: جهود المعنيين بعلم البلاغة.	45

أ) عبد الله بن المعتز.	45
ب) سيبويه.	46
ج) الفراء.	46
د) أبو عبيدة.	46
هـ) الأصمعي.	47
و) الجاحظ.	47
ز) ابن قتيبة: يعد ابن قتيبة.	48
ح) المبرد.	48
ط) قدامة بن جعفر.	49
ي) عبد القاهر الجرجاني.	49
المبحث الثالث: البديع والإعجاز القرآني وأثر القرآن في شاعرية العرب.	50
المطلب الأول: مدخل البديع في الإعجاز القرآني.	50
المطلب الثاني: أثر القرآن في شاعرية العرب.	51
المبحث الرابع: منزلة البديع، أقسامه، وألوانه.	52
المطلب الأول: منزلة البديع بين الدراسات البلاغية:	52
المطلب الثاني: أقسام البديع وألوانه.	53
1- التجنيس.	54
2- المطابقة.	54
3- رد العجز على الصدر.	55
4 – الاعتراض.	55
5- الرجوع.	55
6- حسن الخروج.	56
7- تأكيد المدح بما يشبه الذم.	56
8- تجاهل العارف.	56
9- الهزل يراد به الجد.	56
10- حسن التضمين للشعر.	57
11- التعريض والكناية.	57
12- حسن التشبيه.	58
13- إعنات الشاعر نفسه في القوافي.	58
14- حسن الابتداء.	58
الفصل الثالث: صور من بديع القرآن.	59
المبحث الأول: فن البديع والقرآن الكريم.	60

(1) المعتزلة.	60
(2) المفسرون.	61
(3) الأدباء.	62
المبحث الثاني: من أسرار البيان والبديع في سورة الشرح.	66
الخاتمة	82
أهم النتائج	82
أهم المصادر والمراجع	85

إهداء

إلى روح أبي الطاهرة...

الذي علمني أن الحياة كفاح، وأن العلم لكل خير مفتاح.

إلى أمي الكريمة التي...

تملك قلبًا أزكى وأطهر من المسك والعنبر.

إلى زوجتي... رمز العطاء والخير والمحبة.

إلى أولادي... زهرات حياتي وروحي (أمل ونور وريم وندا)

أهدي إليهم هذا الكتاب

داعيًا الله أن يتقبله وأن يجعله في ميزان حسناتنا جميعًا

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن، وعلم الإنسان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام، وناقل القرآن، وناشر الخير والبلاغة في كل زمان ومكان،،،

أما بعد... فإن بقاء اللغة العربية حيّة الى يومنا هذا مدين دون شك للقرآن الكريم، فلولاه لبادت هذه اللغة كما بادت اللغات الأثرية القديمة. والقرآن الكريم نمط باهر معجز ببيانه وبلاغته، أعجز الجموع على أن يَأْتُواْ بمثله، قال تعالى:" قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا". (الإسراء: 88).

ونستطيع القول بأنّ القرآن هذّب اللغة العربية وفنونها وآدابها من حوشي اللفظ وغريبه، وأضفى عليها لوناً من الطلاوة مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض، ومن هذا النبع الصافي أخذ الأدباء ينهلون ويسيرون على هديه في خطبهم وأشعارهم وكل آثارهم الأدبية، فهو معجمهم الأدبي واللغوي.

ولا يستطع أحد أن ينكر فضل القرآن الكريم فله الفضل في دفع الحركة العلمية التي نشأت حوله على مرّ الزمن، وهو الدافع المحرك وراء كل نهضة علمية شهدها العالم الاسلامي منذ القرن الأول الهجري إلى عصرنا. ولحفظ لغة القرآن إعرابًا وقراءة نشأت علوم النحو والقراءات، ولفهم مضامينه ظهرت علوم التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، ولفهم إعجازه البياني وضعت علوم البلاغة، ولمعرفة أحكامه تفرّع عنه علم الفقه وأصوله، وينبغي التأكيد على أنّ العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمة القرآن الكريم.

وإن الناظر إلى باب الإيجاز والبديع في القرآن الكريم يجد أن لهما خصوصية بين فصول البلاغة العربية وبين البلاغيين والمفسرين وتلك الخصوصية والأهمية ناتجة من المنزل البلاغية لهذين الفنين؛ حيث عرف كثير من البلاغيين البلاغة بأنها: الإيجاز، وعبر كثير من البلاغيين عن البلاغة بالبديع؛ ولذلك كانت الرغبة في الوقوف على بعض من تلك الروائع في بابي الإيجاز والبديع في آيات القرآن الكريم وقوفًا على ما فيها من إعجاز لفظي في اختيار الكلمات حروفًا وأسماء وأفعالًا، وإعجاز أسلوبي، وإعجاز نفسي ناشئ من قراءة النفس

البشرية ومعرفة مكنوناتها، ومن كون القرآن الكريم من عند الخالق الذي يعلم خفايا النفوس، ويقرأ أسرارها فيعبر تعبير الخبير بدواخلها.

والله- تعالى- أسأل أن يجعل هذا الكتاب خالصًا لوجهه الكريم.

إنه نعم المولي ونعم النصر.

د. أشرف حسن محمد حسن الدبسي

شاه علم- سلانجور- ماليزيا

04/ 03/ 2016م

الفصل الأول
الإيجاز في القرآن الكريم

ويشتمل على مباحث هي:

المبحث الأول: الإيجاز في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: إيجاز القصر، وصوره في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: إيجاز الحذف، وصوره في القرآن الكريم.

تمهيد

لا شك أن البلاغة العربية بأقسامها المعاني والبيان والبديع، تعد من أهم أسباب إيصال المعاني واختيار المتكلم لنوع من الكلام ليعبر به عما بداخله يدل دلالة لا شك فيها على مدى تملكه لناصية البيان وحسن التعبير، وإذا كان الإيجاز نوعاً من أنواع علم المعاني وهو قرين البلاغة وموضح معناها عند بعض البلاغيين كان لا بد أن نتناول هذا القسم ببحث مستقل، نوضح فيه مراتب الإيجاز وأنواعه عند البلاغيين، ثم نلقي الضوء على بعض الآيات القرآنية التي سجلت نوعي الإيجاز- بالقصر، والحذف- أبهى صورة وأجمل لفظ؛ لندلل على أن إعجاز القرآن الكريم، ناحية منه تعتمد على اختيار اللفظ ووضعه في موضعه ولاسيما إذا كان هذا اللفظ موجزاً. الإيجاز والحذف، من أقسام البلاغة العربية الغنية بمدلولها القوية في معناها التي إن ملك ناصية توظيفها أحد حكم له بالبلاغة، حتى عد البعض: البلاغة الإيجاز.

" قال معاوية لصحار بن عياش العبدي وهو علامة نسابة: ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال: الإيجاز؛ قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار :أن تجيب فلا تبطئ ،وتقول فلا تخطئ، قال له معاوية مستدركا عبارته، ألا تبطئ ولا تخطئ، وذكر في موضع آخر قول ابن الأعرابي: عن المفضل الضبي: قلت لأعرابي منّا: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل"[1].

وفي السطور القادمة سيحاول الباحث الوصول لجانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم وهو جانب الإيجاز، من خلال ما قاله علماء البلاغة في توضيحهم لتعريف الإيجاز وبيان أنواعه، وإظهار صور الحذف الموجودة في بعض آيات القرآن الكريم، وبيان أهم صور الإيجاز الحذف بالقصر في القرآن الكريم، وبيان أهم صور الإيجاز بالقصر في القرآن الكريم، واظهار ما امتاز به القرآن الكريم في الإيجاز الذي هو من أسرار إعجازه.

---

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو ابن بحر في كتابه البيان والتبيين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت لبنان:(1/ 74-75).

المبحث الأول: الإيجاز في آيات القرآن.

الإيجاز ويقال الحذف، ويقال له: الإشارة أيضاً. يقال:" أوجز في كلامه، إذا قصره، وكلام وحيز، أي: قصير. ومعناه في اصطلاح علماء البيان: هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، وأصدق مثال فيه قوله تعالى:" فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ"[1]، فهاتان الكلمتان قد جمعتا معاني الرسالة كلها، واشتملت على كليات النبوة، وأجزائها".[2]

وهو من أعظم فصول البلاعة؛ لأنه يدل على مدى تمكن صاحب في ناصية البيان، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وما وجد منه في تلك الآيات لا يستطيع مفكر أو كاتب أن يغفله، ونسأل الله تعالى أن يجعل لنا من هذا النظر نصيباً نؤجر عليه.

قال أصحاب الإيجاز:" الإيجاز: قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة، فهو فضل داخل في باب الهذر و والخطل، وهما من أعظم أدواء الكلام"[3].

" وقيل لبعضهم: ما البلاعة ؟، فقال: الإيجاز، قيل: وما الإيجاز؟، قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد"[4].

المطلب الأول: إيجاز القصر

في نوعي الإيجاز البلاغي تحدث الكثير من العلماء[5] والإيجاز قسمان:" إيجاز قصر، وإيجاز حذف"[1].

---

(1) الحجر: 94.

(2) العلوي، السيد الإمام يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوي اليمني، في الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، مراجعة / محمد عبد السلام شاهين، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1415هـ، 1995م. ص 245.

(3) طبانة، بدوي طبانة، في معجم البلاغة العربية: ص 712، طبعة دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الرابعة سنة 1418 هـ، 1997 م.

(4) السابق: ص 712.

(5) السيوطي، الحافظ جلال الدين السيوطي، في الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، بمصر: (163/3 ، وما بعدها)، وعبد القاهر في دلائل الإعجاز، والجياني، محمد بن عبد الملك بن مالك الطائي الجياني أبو عبد الله في الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، تحقيق : د. محمد حسن عواد، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ، باب الإيجاز، وابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، في المخصص، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1417هـ 1996م، الطبعة الأولى، تحقيق خليل إبراهم جفال، ذكره في السفر الثالث عشر من كتاب نعوت الحديث، في الإيجاز والحسن والقبح والطول. وغيرهم من العلماء، وصاحب كتاب عروس الأفراح في شروح تلخيص المفتاح، وهو بهاء الدين أحمد بن على بن عبد الكافي السبكي الشافعي، أحد علماء القرن الثامن، توفي سنه 773 هـ.

أولاً: إيجاز القصر:

هو الوجيز بلفظه، فقال الشيخ بهاء الدين:" الكلام القليل إن كان بعضاً من الكلام أطول منه، فهو إيجاز حذف، وإن كان كلاماً يعطي معنى أطول منه، فهو إيجاز قصر. وقال بعضهم: إيجاز القصر هو تكثير المعنى بتقليل اللفظ"[2].

قيل في التبيان:" الإيجاز الخالي من الحذف ثلاثة أقسام: أحدها: إيجاز القصر، وهو أن يقصر اللفظ على معناه، كقوله:" إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ"، إلى قوله:" وأْتُونِي مُسْلِمِينَ"[3]، جمع في أحرف: العنوان، والكتاب، والحاجة. الثاني: إيجاز التقدير، وهو أن يقدر معنى زائداً على المنطوق، ويسمى بالتضييق أيضاً وبه سماه بدر الدين بن مالك في المصباح؛ لأنه نقص من الكلام ما صار لفظه أضيق من قدر معناه، نحو:" فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ"[4]، أي: خطاياه غفرت، فهي له لا علية. الثالث: الإيجاز الجامع، وهو أن يحتوي اللفظ على معان متعددة نحو:" إِنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالعَدْلِ والإحْسَانِ"[5] الآية، فإن العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط المرمى به إلى جميع الواجبات في الاعتقاد والأخلاق والعبودية".[6] [7]، وفي الآية مقابلة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف فيه جماع كل خير، والنهي عن المنكر فيه نهي عن أي شر وبضدها تتمايز الأشياء.

ثانيًا: من إيجاز القصر في القرآن الكريم.

إن المتتبع لآيات الذكر الحكيم بشكل عام، يجد أن إيجاز القصر ظهر جلياً في أبهى حلله، ومن ذلك قوله تعالى:" وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ

---

(1) السيوطي، الحافظ جلال الدين السيوطي، في الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، بمصر: (3/163).

(2) السابق: (3/164).

(3) النمل: 30، 31.

(4) البقرة: 275.

(5) النحل:90.

(6) الإتقان: (3/163–164). أدخل بعض العلماء الإشارة، والتضمين، الحصر. وغيرها.

(7) الإتقان: (3/163–180).

إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ"[1].

إن الناظر إلى قوله:" وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا"، وقوله:" وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"، يجد أن في الآية إيجازاً بالقصر؛ إذ أصل مادة الإحسان من الحسن، وهي عبارة تشمل الإحسان قولاً وطاعة وإرضاءً، وغير ذلك، ولم يعبر عنها بلفظ مفصل وإنما استخدم اللفظ الدال على عبارات ومعان كثيرة.

[و]" الحسن: عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحس. والحسنة: يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والسيئة تضادها، وهما من الألفاظ المشتركة. والفرق بين الحُسْن والحَسَنة والحُسنَى: أن الحُسن يقال في الأعيان والأحداث وكذلك الحَسَنة إذا كانت وصفاً وإذا كانت اسماً فمتعارف في الأحداث، والحسنى لا يقال إلا في الأحداث دون الأعيان، والحُسْن أكثر ما يقال في تعارف العامة في المستحسن بالبصر، يقال:

رجل حسن وحُسَّانٌ وامرأةٌ حسناءُ وحُسَّانَةٌ"[2].

وقوله:" أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"[3].

في قوله:" أم كنتم شهداء" جمع بين الإنكار عليهم في قولهم على من لم يشهدوه، وتعليمهم ما جهلوه، وفيه من الإيجاز والإكمال على حد قول الزمخشري مالا ينكر.

---

(1) البقرة: 83.

(2) الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني" ت 502 هـ"، المفردات في غريب القرآن، طبعة دار الخلق للتراث بمصر، بدون تأريخ: ص 118، مادة: حسن.

(3) البقرة: 133.

"علم السامع موقع الإنكار، ثم يعلم أن قول أبناء يعقوب:" نعبد إلهك" لم يكن من دعوى اليهود حتى يدخل في حيز الإنكار؛ لأنهم لو ادعوا ذلك لم ينكر عليهم إذ هو عين المقصود من الخبر. ولم يكن داعٍ لجعل" أم" متصلة بتقدير محذوف قبلها تكون هي معادلة له، كأن يقدر: أكنتم غائبين إذ حضر يعقوب الموت أم شهداء؟، وأن الخطاب لليهود أو للمسلمين، والاستفهام للتقرير، ولا لجعل الخطاب في قوله:"كنتم" للمسلمين على معنى جعل الاستفهام للنفي المحض، أي: ما شهدتم احتضار يعقوب. أي: على حد" وما كنت بجانب الغربي"[1]، وحد" وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم"[2]، كما حاوله الزمخشري[3] ومتابعوه ، وإنما حداه إلى ذلك قياسه على غالب مواقع استعمال أمثال هذا التركيب مع أن موقعه هنا موقع غير معهود، وهو من الإيجاز والإكمال؛ إذ جمع الإنكار عليهم في التقول على من لم يشهدوه، وتعليمهم ما جهلوه، ولأجل التنبيه على هذا الجمع البديع أعيدت" إذ" في قوله:" إذ قال لبنيه"؛ ليكون كالبدل من" إذ حضر يعقوب الموت"، فيكون مقصوداً بالحكم أيضاً"[4].

وقوله:" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ."[5].

الإيجاز في قوله:" وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ"، أي: إذا ما مات الأب المولود له، وورثه من لا يستحق الميراث، فعليه- أي: الوارث- رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وفيه من المعاني الدالة على إيجاز القصر الكثير.

---

(1) القصص: 44.

(2) آل عمران: 44.

(3) الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، في: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، طبعة دار الريان للتراث بالقاهرة، ودار الكتب العلمية بيروت، الثالثة سنة 1407 هـ، 1987 م. رتبه وضبطه وصححه/مصطفى حسين أحمد:(193/1).

(4) ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، طبعة دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بدون تأريخ:(731/1).

(5) البقرة: 233.

"وقد علم من تسمية المفروض عليه الإنفاق والكسوة وارثاً أن الذي كان ذلك عليه مات، وهذا إيجاز. والمعنى: فإن مات المولود له فعلى وارثه مثل ما كان عليه فإن على الواقعة بعد حرف العطف هنا ظاهرة في أنها مثل على التي في المعطوف عليه. فالظاهر أن المراد وارث الأب، وتكون" أل" عوضاً عن المضاف إليه، كما هو الشأن في دخول" أل" على اسم غير معهود ولا مقصود جنسه"[1]. " وقيل: هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه. وقيل: المراد وارث الأب، وهو الصبي نفسه، وأنه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجرة رضاعه في ماله إن

كان له مال، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه"[2].

وقوله:" وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا"[3].

"اشتمال هذه الآية على كلمة" اليتامى" يؤذن بمناسبتها للآية السابقة، بيد أنّ الأمر بنكاح النساء وعددهنّ في جواب شرط الخوف من عدم العدل في اليتامى ممّا خفي وجهُه على كثير من علماء سلف الأمة؛ إذ لا تظهر مناسبة، أي: ملازمة بين الشرط وجوابه. واعلم أنّ في الآية إيجازاً بديعاً؛ إذ أطلق فيها لفظ اليتامى في الشرط، وقوبل بلفظ النساء في الجزاء، فعلم السامع أنّ اليتامى هنا جمع يتيمة وهي صنف من اليتامى في قوله السابق:" وآتوا اليتامى أموالهم"[4]. وعلم أنّ بين عدم القسط في يتامى النساء، وبين الأمر بنكاح النساء، ارتباطاً لا محالة وإلاّ لكان الشرط عبثاً. وبيانه:. هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها، فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهنّ إلاّ أن يقسطوا لهنّ. وعليه فيكون إيجاز لفظ الآية اعتداداً بما فهمه الناس ممّا يعلمون من أحوالهم، وتكون قد جمعت إلى حكم حفظ حقوق

---

(1) التحرير والتنوير: (435/2).

(2) الكشاف: (280/1).

(3) النساء: 3.

(4) النساء: 2.

اليتامى في أموالهم الموروثة حفظ حقوقهم في الأموال التي يستحقّها البنات اليتامى من مهور أمثالهنّ، وموعظة الرجال بأنّهم لما لم يجعلوا أواصر القرابة شافعة النساء اللاتي لا مرغِّب فيهنّ لهم فيرغبون عن نكاحهنّ، فكذلك لا يجعلون القرابة سبباً للإجحاف بهنّ في مهورهنّ"[1].

وقوله:" يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ."[2].

وعلم من قوله:" يرثها" أنّ الأخت إن توفّيت ولا ولد لها يرثها أخوها، والأخ هو الوارث في هذه الصورة، وهي عكس التي قبلها. فالتقدير: ويرث الأختَ امرؤ إن هلكت أخته ولم يكن لها ولد. وعلم معنى الإخوة من قوله:" وله أخت"، وهذا إيجاز بديع، ومَع غاية إيجازه فهو في غاية الوضوح، فلا يشكل بأنّ الأخت كانت وارثة لأخيها فكيف عاد عليها الضمير بأن يرثها أخوها الموروث، وتصير هي موروثة؛ لأنّ هذا لا يفرضه عالم بالعربية، وإنَّما يُتوهّم ذلك لو وقع الهلك وصفاً لامرئ، بأن قيل: المرء الهالك يرثه وارثه وهو يرث وارثه إن مَات وارثه قبله. والفرق بين الاستعمالين رشيق في العربية[3].

وقوله:" وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"[4].

هذه الآية من أحسن القصص؛ إذ بلغت درجة الإعجاز والإيجاز في جمعها لقصة يوسف- عليه السلام- من تحقيق الرؤيا وما سبقها من أحداث.

وتلك الآية من الله تعالى على لسان يوسف- عليه السلام- فيها إيجاز وأشار بها:" إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجبّ، ومشاهدة مكر إخوته به، بقوله:" من بعد أن نزغ

---

(1) التحرير والتنوير: (3/222، 223).

(2) النساء: 176.

(3) التحرير والتنوير: (4/66، 67).

(4) يوسف: 100.

الشيطان بيني وبين إخوتي"، فكلمة" بعد" اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره. وقد ألم به إجمالاً اقتصاراً على شكر النعمة، وإعراضاً عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته فمرّ بها مرّ الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان؛ إذ ناطها بنزغ الشيطان"[1].

و" بعد أن نزغ، أي: أفسد. وأسند النزغ إلى الشيطان؛ لأنه الموسوس. وذكر هذا القدر من أمر إخوته؛ لأنّ النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء كانت أحسن موقعاً"[2].

وقوله:" يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا"[3].

والمقصود من عبادة الشيطان اتباع أوامره من عبادة الأصنام وغيرها، عبر عنها بذلك إظهاراً لفسادها وضلالها. " فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم، ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم:" إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون"[4]، ففي الكلام إيجاز؛ لأن معناه: لا تعبد الأصنام؛ لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين اتخذوها ووضعوها للناس، وعبادتَها من وساوس الشيطان للذين سنّوا سنن عبادتها ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها، فمن عَبَد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالاً معلوماً"[5].

وقوله:" وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ"[6].

قوله:" حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ" إيجاز بديع، وذلك من حيث الاكتفاء بتعب الأم وبرها لذلك، وقياس تعب الأب عليه؛ ليفهم السامع أن الوصاية بهما معاً.

---

(1) التحرير والتنوير: (57/7).

(2) أبي حيان، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، في البحر المحيط، طبعة دار الفكر بيروت سنة 1413هـ. طبعة دار الفكر بيروت لبنان سنة 1413 هـ، 1992 م: (328/6، 329).

(3) مريم: 44.

(4) الزخرف: 23.

(5) التحرير والتنوير: (118/8).

(6) لقمان: 14.

"والوهْن:. الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء. وانتصب" وَهْناً" على الحال من" أمّه" مبالغة في ضعفها حتى كأنها نفس الوهْن. فإن حمل المرأة يقارنه التعب من ثقل الجنين في البطن، والضُعفُ من انعكاس دمها إلى تغذية الجنين. وجملة:" حملته أمه وهناً على وهن" في موضع التعليل للوصاية بالوالدين؛ قصداً لتأكيد تلك الوصاية؛ لأن تعليل الحكم يفيده تأكيداً، ولأن في مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث في نفس الولد على أن يبرّ بأمه ويستتبع البرّ بأبيه. وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين بذكر أحوال خاصة بأحدهما، وهي الأم اكتفاء بأن تلك الحالة تقتضي الوصَاية بالأب أيضاً للقياس، فإن الأب يلاقي مشاقّ وتعباً في القيام على الأم لتتمكن من الشغل بالطفل في مدة حضانته ثم هو يتولى تربيته والذبّ عنه حتى يبلغ أشدّه. فلما ذكرت هنا الحالة التي تقتضي البر بالأم من الحمل والإرضاع كانت منبهة إلى ما للأب من حالة تقتضي البرَّ به على حساب ما تقتضيه تلك العلة في كليهما قوة وضعفاً. وحصل من هذا النظم البديع قضاء حق الإيجاز"[1].

وقوله:" وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا."[2].

في قوله:" وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا" إيجاز بديع ونظم جميل، ومعنى أنيق فتأمل!.

"ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهراً لتُطابق مختلف مدد الحمل إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة، وهو الغالب، قيل: كانوا إذا كان حمل المرأة تسعة أشهر، وهو الغالب أرضعتْ المولود أحد وعشرين شهراً، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعت اثنين وعشرين شهراً، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهراً، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً، وذلك أقصى أمد الإرضاع، فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهراً زائداً في الإرضاع؛ لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالاً. ومن بديع هذا الطيّ في الآية: أنها صالحة للدلالة

(1) التحرير والتنوير: (10/157، 158).

(2) الأحقاف: 15.

على أن مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر، ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر؛ لأن الغرض إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل، فإن مشقة مدة الحمل أشدّ من مشقة الإرضاع، فلولا قصد الإيماء إلى هذه الدلالة، لكان التحديد بتسعة أشهر أجدرَ"[1].

وقوله:" وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[2].

"قوله:" لما قالوا"، إيجاز بديع؛ إذ المقصود بما قالوه من لفظ الظهار، وتحريم ما أحله الله من الاستمتاع بالزوجة وجعلها في التحريم كالأم. والمراد:" بما قالوا" ما قالوا بلفظ الظهار، وهو ما حَرموه على أنفسهم من الاستمتاع المفاد من لفظ: أنتِ عليّ كظهر أمي؛ لأن: أنت عليّ. في معنى: قربانك عليّ كمِثله من ظهر أمي. ففعل القول في هذا وأمثاله ناصبُ لمفرد لوقوعه في خلاف جملة مقولة، وإيثار التعبير عن المعنى الذي وقع التحْريم له. فلفظ الظهار بالموصول وصلته هذه إيجاز وتنزيه للكلام عن التصريح به. فالمعنى: ثم يرومون أن يرجعوا للاستمتاع بأزواجهم بعد أن حرموه على أنفسهم. وفهم من قوله:" ثم يعودون لما قالوا" أن من لم يُرِد العود إلى امرأته لا يخلو حالهُ: فإما أن يريد طلاقها فله أن يوقع علَيها طلاقاً آخر؛ لأن الله أبطل أن يكون الظهار طلاقاً، وإما أن لا يريد طلاقاً ولا عوداً. فهذا قد صار ممتنعاً من معاشرة زوجه مضِرًّا بها فله حكم الإيلاء"[3].

وفي الختام لا يمكن أن نختم إلا بعد الحديث عن آية من أروع الآيات آية معجزة في قصرها وفي معانيها وفي تعبيرها وفي مقصدها، وقراءتها للنفوس المتعدد، وهي قول الله تعالى:" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ". (البقرة: الآيةُ 179). قال الجلالُ السُّيُوطِي:" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"، أي بَقَاءٌ عَظِيم يا ذوِي العُقُولِ؛ لأنَّ الْقَاتِلَ إذَا عَلِمَ

---

(1) التحرير والتنوير: (30/12).

(2) المجادلة: 3.

(3) التحرير والتنوير: (17/13).

أنّهُ يُقْتَل ارتَدَعَ فَأحْيَا نَفْسَهُ[1]. قال الحافظُ العِماد بن كَثِير: يَقُولُ تَعَالى: وفِي شَرْعِ القَصَاصِ لكم- وهو قَتْلُ الْقَاتِلِ- حِكْمَةٌ عَظِيمةٌ، وَهِيَ بَقَاءُ الْمُهَج وصَونُها؛ لأنّه إذا عَلِمَ الْقَاتِلُ أنّهُ يُقْتَل انْكَفَّ عنْ صَنِيعِهِ، فَكَانَ ذَلكَ حياةَ النّفُوسِ[2]. وقال الإمامُ البَغَوِي:" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" أيْ بَقاءٌ، وذَلِكَ أنّ الْقَاصِدَ للقَتْلِ إذَا عَلِمَ أنَّهُ إذَا قَتَلَ يُقْتَل، يَمْتَنِعُ عن الْقَتْلِ، فَيَكُونُ فِيه بَقَاؤه وبقاء من همَّ بِقَتْلِهِ[3]. وقال العلاّمة البلاغي الزّمَخْشَرِي :" وَهِيَ الحَيَاةُ الحَاصِلَةُ بالارتِداعِ عنِ الْقَتْلِ لِوقوعِ العِلْمِ بالاقْتِصَاصِ منَ القَاتِلِ؛ لأنّهُ إذا همَّ بِالقَتْلِ فَعَلِمَ أنّهُ يَتَقَصَّ فارْتَدَعَ منهُ سَلِمَ صَاحِبه منَ القَتْلِ وسَلِمَ هو منَ القوْدِ، فَكانَ القِصاصُ سَبَبَ حياةِ نَفْسَيْنِ[4]. قالَ الشيخُ وهبةُ الزُّحيْلِي: أيْ لَكُم فِي هَذا الجِنْس من الحُكمِ الذي هو القِصَاص حياةٌ عظيمة... وحكمة القِصاصِ: أنه يُساعِدُ عَلَى تَوْفِير الحياة الْهَانِئة الْمُسْتَقِرّة للْجَماعة، ويَزْجُرُ القَاتِلَ وأمثَالَهُ، وَيَقْمَعُ العُدْوان، ويُخَفِّفُ من ارتِكابِ جَرِيمةِ الْقَتْلِ؛ إذْ من عَلِمَ أنّهُ إذَا قتلَ غَيْرَهُ قُتِلَ بِهِ، امْتَنَعَ عن القَتلِ، فَحَافَظَ عَلَى الْحَيَاتَيْن: حياةَ القَاتِل والمقْتُولِ[5].

المطلب الثاني: إيجاز الحذف.

أولًا: الإيجاز بالحذف:

"ذكر أسبابه [الحذف]. منها: مجرد الاختصار والاحتراز عن البعث؛ لظهوره. ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم، وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء. ومنها: التفخيم والإعظام؛ لما فيه من الإبهام، قيل: إنما يحسن الحذف؛ لقوة الدلالة عليه، أو يقصد به تعديد أشياء، فيكون في تعدادها

---

(1) تفسير الجلالين: ص 27، بتصرّف يسير.

(2) عمدة التّفْسِير:(1/ 213).

(3) مَعَالِمُ التّنْزِيل:(1/ 103).

(4) الكشّاف: ص 111.

(5) مُختصراً:(1/ 468– 471). ووهبة بن مصطفى الزحيلي، أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة من سوريا في العصر الحديث، عضو المجامع الفقهية بصفة خبير في مكة وجدة والهند وأمريكا والسودان. ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه بجامعة دمشق، كلية الشريعة، الميلاد: ١٩٣٢، دير عطية، سوريا، الوفاة: ٨ أغسطس، ٢٠١٥، سوريا، التعليم: جامعة الأزهر.

طول وسآمة، فيحذف ويكتفى بالحال عن ذكرها، ولهذا القصد يؤثر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس. ومنها: التخفيف؛ لكثرة دورانه في الكلام، كما في حذف حرف النداء. ومنها: شهرته، حتى يكون ذكره وعدمه سواء. ومنها: صيانته عن ذكره؛ تشريفاً. ومنها: صيانة اللسان عنه؛ تحقيراً له. ومنها: قصد العموم. ومنها: رعاية الفاصلة"[1].

ولعل المقام لا يطول عندما أنقل هذا الكلام الطيب الذي أظن أن الجميع لا بد أن يقرأه؛ لما فيه من دليل دامغ على إعجاز القرآن الكريم في حفاظه على المجتمع وقراءته النفسية لأدوائه وعلاجها:" وهنا نلاحظ أن النسق القرآني يأتي مرة فيقول:" يا أيها الذين أمنوا كتب عليكم". ويأتي هنا ليقول النسق القرآني:" ولكم في القصاص". التشريع الدقيق المحكم يأتي بواجبات وبحقوق؛ فلا واجب بغير حق، ولا حق بغير واجب، وحتى نعرف سمو التشريع مطلوب من كل مؤمن أن ينظر إلى ما يجب عليه من تكاليف، ويقرنه بما له من حقوق، ولسوف يكتشف المؤمن أنه في ضوء منهج الله قد نال مطلق العدالة. إن المشرع هو الله، وهو رب الناس جميعًا؛ ولذلك فلا يوجد واحد من المؤمنين أولى بالله من المؤمنين الآخرين. إن التكليف الإيماني يمنع الظلم، ويعيد الحق، ويحمي ويصون للإنسان المال والعرض. ومن عادة الإنسان أن يجادل في حقوقه ويريدها كاملة، ويحاول أن يقلل من واجباته، ولكن الإنسان المؤمن هو الذي يعطي الواجب تماما فينال حقوقه تامة، ولذلك يقول الحق:" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة: 179).

إن القصاص مكتوب على القاتل والمقتول وولي الدم. فإذا علم القاتل أن الله قد قرر القصاص فإن هذا يفرض عليه أن يسلم نفسه، وعلى أهله ألا يخفوه بعيداً عن أعين الناس؛ لأن القاتل عليه أن يتحمل مسئولية ما فعل، وحين يجد القاتل نفسه محوطاً بمجتمع مؤمن يرفض القتل؛ فإنه يرتدع ولا يقتل، إذن ففي القصاص حياة؛ لأن الذي يرغب في أن يقتل يمكنه أن يرتدع عندما يعرف أن هناك من سيقتص منه، وأن هناك من لا يقبل المداراة عليه.

---

(1) الإتقان في علوم القرآن: (3/171– 173).

ونأتي بعد ذلك للذين يتشدقون ويقولون: إن القصاص وحشية وإهدار لآدمية الإنسان، ونسألهم: لماذا أخذتكم الغيرة؛ لأن إنساناً يقتص منه بحق وقد قتل غيره بالباطل؟ ما الذي يحزنك عليه؟. إن العقوبة حين شرعها الله لم يشرعها لتقع، وإنما شرعها لتمنع. ونحن حين نقتص من القاتل نحمي سائر أفراد المجتمع من أن يوجد بينهم قاتل لا يحترم حياة الآخرين، وفي الوقت نفسه نحمي هذا الفوضوي من نفسه؛ لأنه سيفكر ألف مرة قبل أن يرتكب جريمة.

إذن فالقصاص من القاتل عبرة لغيره، وحماية لسائر أفراد المجتمع، ولذلك يقول الحق سبحانه:" ولكم في القصاص حياة". إن الحق يريد أن يحذرنا أن تأخذنا الأريحية الكاذبة، والإنسانية الرعناء، والعطف الأحمق، فنقول: نمنع القصاص. كيف نغضب لمعاقبة قاتل بحق، ولا نتحرك لمقتل بريئ؟ إن الحق حين يشرع القصاص كأنه يقول: إياك أن تقتل أحداً لأنك ستقتل إن قتلته، وفي ذلك عصمة لنفوس الناس من القتل. إن في تشريع القصاص استبقاء لحياتكم؛ لأنكم حين تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئًا وستقتلون بفعلكم فسوف تمتنعون عن القتل، فكأنكم حقنتم دماءكم. وذلك هو التشريع العالي العادل.

وفي القصاص حياة؛ لأن كل واحد عليه القصاص، وكل واحد له القصاص، إنه التشريع الذي يخاطب أصحاب العقول وأولي الألباب الذين يعرفون الجوهر المراد من الأشياء والأحكام، أو غير أولي الألباب فهم الذين يجادلون في الأمور دون أن يعرفوا الجوهر منها، فلولا القصاص لما ارتدع أحد، ولولا القصاص لغرقت البشرية في الوحشية. إن الحكمة من تقنين العقوبة ألا تقع الجريمة وبذلك يمكن أن تتواري الجريمة مع العقوبة ويتوازن الحق مع الواجب. إن المتدبر لأمر الكون يجد أن التوازن في هذه الدنيا على سبيل المثال في السنوات الماضية يأتي من وجود قوتين عظميين كلتاهما تخشى الأخرى وكلتاهما تختلف مع الأخرى، وفي هذا الاختلاف حياة لغيرهما من الشعوب؛ لأنهما لو اتفقتا على الباطل لتهدمت أركان دولتهما، وكان في ذلك دمار العالم، واستعباد لبقية الشعوب.

وإذا كان كل نظام من نظم العالم يحمل للآخر الحقد والكراهية والبغضاء ويريد أن يسيطر بنظامه لكنه يخشى قوة النظام الآخر، لهذا نجد في ذلك الخوف المتبادل حماية لحياة الآخرين، وفرصة للمؤمنين أن يأخذوا بأسباب الرقي العلمي؛ ليقدموا للدنيا أسلوباً لائقاً بحياة الإنسان على الأرض في ضوء منهج الله. وعندما حدث اندثار لقوة من القوتين هي الاتحاد السوفيتي، فإن الولايات المتحدة تبحث الآن عن نقيض لها؛ لأنها تعلم أن الحياة دون نقيض في مستوى قوتها، قد يجري الصغار عليها. إن الخوف من العقوبة هو الذي يصنع التوازن بين معسكرات العالم، والخوف من العقوبة هو الذي يصنع التوازن في الأفراد أيضا.

إن عدل الرحمن هو الذي فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا. فها هو ذا الحق في جريمة الزنى على سبيل المثال يؤكد ضرورة أن يشاهد العقاب طائفة من الناس؛ ليرتدعوا. إن التشديد مطلوب في التحري الدقيق في أمر حدوث الزنى؛ لأن عدم دقة التحري يصيب الناس بالقلب ويسبب ارتباكا وشكا في الأنساب، والتشديد جاء أيضا في العقوبة في قول الحق:" الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ". (النور: 2).

إن الذي يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضا على حقوق الله، ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس. وفي إنزال العقاب بالمعتدي خضوع لمنهج الله، وفي رؤية هذا العقاب من قبل الآخرين هو نشر لفكرة أن المعتدي ينال عقاباً، ولذلك شرع الحق العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن في النفس البشرية. وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليعالج قضية اجتماعية أخرى. إن الحق بعد أن عالج قضية إزهاق الحياة ينتقل بنا إلى قضية أخرى من أقضية الحياة، إنها قضية الموت الطبيعي. كأن الحق بعد أن أوضح لنا علاج قضية الموت بالجريمة يريد أن يوضح لنا بعضاً من متعلقات الموت حتفًا من غير سبب مزهق للروح. إن الحق يعالج في الآية... بعضاً من الأمور المتعلقة بالموت؛ ليحقق التوازن الاقتصادي في المجتمع كما حقق بالآية السابقة التوازن العقابي والجنائي في المجتمع.

"ذكر شروطه: الأول: وجود دليل، إما: حالي، نحو:" قَالُواْ سَلاَمًا"[1]، أي: سلمنا سلاماً، أو: مقالي. ومن الأدلة: العقل، حيث يستحيل صحة الكلام عقلاً إلا بتقدير محذوف. قيل ابن هشام: وإنما يشترط الدليل فيما إذا كان المحذوف الجملة بأسرها، أو أحد ركنيها، أو يفيد معنى فيها هي مبنية عليه. أما الفضلة فلا يشترط لحذفها وجدان دليل، بل يشترط ألا يكون في حذفها ضرر معنوي أو صناعي، ويشترط في الدليل اللفظي أن يكون طبق المحذوف. الثاني : ألا يكون المحذوف كالجزء، ومن ثم لم يحذف الفاعل ولا نائبه، ولا اسم كان وأخواتها. الثالث: ألا يكون مؤكداً؛ لأن الحذف مناف للتأكيد، إذ الحذف مبني على الاختصار، والتأكيد مبني على الطول. وأما حذف الشيء لدليل وتوكيده، فلا تنافي بينهما، لأن المحذوف لدليل كالثابت. الرابع: ألا يؤدي حذفه إلى اختصار المختصر، ومن ثم لم يحذف اسم الفعل؛ لأنه اختصار للفعل. الخامس: ألا يكون عاملاً ضعيفاً، فلا يحذف الجار والناصب للفعل والجازم إلا في مواضع قويت فيها الدلالة، وكثر فيها استعمال تلك العوامل. السادس: ألا يكون المحذوف عوضاً عن شيء، ومن ثم قال ابن مالك: إن حرف النداء ليس عوضاً من: أدعو؛ لإجازة العرب جزمه، ولذا أيضاً لم تحذف التاء من إقامة، واستقامة. السابع: ألا يؤدي حذفه إلى تهيئة العامل القوي"[2].

أنواع الحذف:" والمحذوف: إما جزء جملة، أو جملة، أو أكثر من جملة. الأول: إما مضاف. وإما موصوف. وإما صفة. وإما شرط. وإما جواب شرط، وهو ضربان: أحدهما: أن يحذف لمجرد الاختصار. وثانيهما: أن يحذف للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن. قال السكاكي رحمه الله:" ولهذا المعنى حذفت الصلة من قولهم:" جاء بعد اللتيا والتي" أي: المشار إليه بهما وهي المحنة، أو الشدائد بلغت شدتها وفظاعة شأنها مبلغاً يبهت الواصف معه، حتى لا يحير ببنت شفة، وإما: غير ذلك.

---

(1) هود: 69.

(2) الإتقان في علوم القرآن: (3/174– 178).

والثاني: أعني ما يكون جملة، إما مسبب ذكر سببه، كقوله تعالى: " لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ"[1]. أو بالعكس، كقوله تعالى: " ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ"[2]. والثالث: كقوله تعالى:" فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى"[3]. أي: فضربوه ببعضها، فيحيى، فقلنا: كذلك يحيي الله الموتى. أوجه الحذف: واعلم أن الحذف على وجهين: أحدهما: أن لا يقام شيء مقام المحذوف. والثاني: أن يقام مقامه ما يدل عليه[4].

فائدته: للحذف فائدة ذكرها ابن القيم فقال:" فائدته زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد، وأكثر، وكان ذلك أحسن"[5].

ثانيًا: صور من الإيجاز بالحذف في آيات القرآن.

من دلائل إعجاز القران الكريم ما اشتمل عليه من آيات الإيجاز، وسأبين بعضاً منها في آيات القرآن. قال يحيى بن حمزة العلوي:" الإيجاز من أعظم قواعد البلاغة، ومن مهمات علومها، ومواقعه في القران أكثر من أن تحصى"[6].

---

(1) الأنفال: 8.

(2) البقرة:54.

(3) البقرة: 73.

(4) القزويني، الخطيب القزويني، في الإيضاح في علوم البلاغة:(1/ 179)، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، طبعة دار إحياء العلوم سنة 1419هـ 1998م، بيروت.

(5) وينظر: الفوائد المشوق– المنسوب لابن القيم–: ص 71. وابن القيم: "691– 751 هـ". هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعيد بن حريز الزرعي، ثم الدمشقي أبو عبد الله، شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية. ولد سنة 691 هـ، وتربى في بيت علم وفضل، وتلقى مبادئ العلوم عن أبيه، وأخذ العلم عن كثير من علماء عصره، ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد لازمه وتتلمذ[له] وقد شهد له العلماء بالتفوق في فقه الكتاب والسنة، ودقائق الاستنباط. وقد صنف له تصانيف كثيرة منها: تهذيب سنن أبي داود، والكلم الطيب، وأعلام الموقعين، وبدائع الفوائد ؟ وتوفي– رحمه الله– ليلة الخميس 13 رجب سنة 751هـ، ودفن بدمشق بجوار والده في مقبرة "باب الصغير". وتنظر ترجمته في مختصر زاد المعاد للإمام محمد بن عبد الوهاب طبعة دار الريان الطبعة الثانية سنة 1407هـ–1987م القاهرة.

(6) الطراز: ص245.

أولاً: الإيجاز بحذف جزء جملة.

1- الإيجاز بحذف حرف:

قال ابن جني في المحتسب:" حذف الحرف ليس بقياس؛ لأن الحروف إنما دخلت الكلام لضرب من الاختصار، فلو ذهبت تحذفها لكنت مختصراً لها هي أيضاً، واختصار المختصر إجحاف"[1].

وحرف الجر يكثر حذفه مع" أن"، وذلك لضرب من **الإيجاز وإكثار المعنى**، ومن ذلك قوله تعالى:" وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ."[2].

"ولحذف حرف الجرّ بعد" ترغبون"- هنا- موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى، أي: ترغبون عن نكاح بعضهنّ، وفي نكاح بعض آخر، فإنّ فعْل رغب يتعدّى بحرف" عن" للشيء الذي لا يُحَبّ، وبحرف" في" للشيء المحبوب. فإذا حذف حرف الجرّ احتمل المعنيين إن لم يكن بينهما تناف، وذلك قد شمله قوله في الآية المتقدّمة" وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا"[3][4]. وهذا ما كنت أقصده من الإيجاز المعجز بالاحتمال مع عدم وجود مناف لأي من المعنيين فتأمل!. وقيل: وترغبون أن تنكحوهن هذا اللفظ يحتمل الرغبة والنفرة، فالمعنى في الرغبة في أن تنكحوهن لمالهن أو لجمالهن، والنفرة وترغبون عن أن تنكحوهن؛ لقبحهن، فتمسكوهن رغبة في أموالهن"[5].

وقوله:" يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا. يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[6].

---

(1) نسب هذا الرأي إلى ابن جني السيوطي في الإتقان: (188/3).

(2) النساء: 127.

(3) النساء: 3.

(4) التحرير والتنوير: (213/3).

(5) البحر المحيط: (84/3).

(6) النساء: 176.

قوله:"" يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا" امتنان، و" أن تضلّوا" تعليل لـ" يبيّنُ" حذفت منه اللام، وحذفُ الجار مع" أن" شائع. والمقصود: التعليل بنفي الضلال لا لوقوعه؛ لأنّ البيان ينافي التضليل، فحُذفت لا النافية، وحذفها مَوجود في مواقع من كلامهم؛ إذا اتّضح المعنى. وهذا تأويل الكوفيين، وتأوّل البَصريون الآية. ونظائرهما على تقدير مضاف، يدلّ عليه السياق هو المفعول لأجله، أي: كراهة أن تضلّوا. وقد جعل بعض المفسّرين" أن تضلّوا" مفعولاً به لـ" يبيّن"، وقال: المعنى: أنّ الله فيما بيّنه من الفرائض، قد بيّن لكم ضَلالكم الذي كنتم عليه في الجاهلية، وهذا بعيد؛ إذ ليس ما فعلوه في الجاهلية ضلالاً قبل مجيء الشريعة؛ لأنّ قسمة المال ليست من الأفعال المشتملة على صفة حسن وقبيح بيّنه، إلاّ إذا كان فيها حرمَان لمن هو حقيق بالمؤاساة والمبرّة، ولأنّ المصدر مع" أن" يتعيّن أن يكون بمعنى المستقبل، فكيف يصحّ أن يراد بـ" أن تضلّوا" ضلالاً قد مضى"[1].

الإيجاز بحذف حرف النداء:

" وقد جاء حذف حرف النداء في مواضع متعددة، ولمعرفة حذفه فيه- فيما أرى- ضابطين:

الأول: دلالة الحرف المحذوف على معنى مع بقاء هذا المعنى بعد الحذف.

والثاني: اعتبار الحرف محذوفاً بالقياس على موضع آخر مماثل ورد فيه دون حذف.

فمن النوع الأول: حذف حرف النداء" الياء" كثيراً في القرآن الكريم؛ حيث لم يأت في القرآن أداة نداء سواه. ولأن العلماء صرحوا على أن أداة النداء إذا حذفت وجب أن يقدر المحذوف ياءً؛ لأنها أم الباب"[2].

---

(1) التحرير والتنوير: (4/67، 68).

(2) ابن هشام، عبدالله بن هشام الأنصاري، في مغني اللبيب عن كتب الأعاريب:(1/243)، وما بعدها، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، طبعة المكتبة العصرية، سنة(1411 هـ)، وخصائص التعبير القرآني: (2/7).

وقد ورد ذلك في آيات القرآن ومن ذلك قوله تعالى:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[1].

"" رب": منادى محذوف منه حرف النداء. وأصله" ربي"، حذفت ياء المتكلم تخفيفاً، وهو كثير في المنادى المضاف إلى الياء. وإعادة النداء في قوله:" رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ"؛ لإنشاء التحسر على ذلك"[2].

[و]" سر حذف أداة النداء" الياء" مع "رب". المبالغة في تصوير قرب المنادى "رب"، حيث

إن معناه: المربي والسيد والمالك. وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج في ندائه إلى وسائط[3]. أما لماذا حذف" يا" مع" رب"؟، أن هذه الكلمة" رب" أكثر استعمالاً من غيرها في الدعاء، فروعي فيها من جهات التخفيف ما يجعلها أطوع على الألسنة وأسهل في مجاري الحديث. ولعل السر في إيثار القرآن الكريم لحرف النداء" يا" دون غيره؛ لأن هذه الأداة تكون الوسيلة الطبيعية في النداء؛ إذ هي أكثرها استعمالاً عند الخاصة والعامة، ولأنها أم الباب، ولأنها أخف أحرف النداء في النطق؛ لأنها تبدو في خفة حركتها، كأنها صوت واحد؛ لانطلاق اللسان بمدها دون أن يستأنف عملاً. أما الأربع الأُخر، وهي الهمزة، وأيا، وهيا، وأي، فإن كلاً منها يبدأ بحروف الحلق، وهي أثقل الأصوات نطقاً"[4].

وقوله:" وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا"[5]

---

(1) إبراهيم: 35، 36.

(2) التحرير والتنوير: (238/7، 239).

(3) د/ أحمد بدوي، في كتابه: من بلاغة القرآن:/ ص 169.

(4) خصائص التعبير القرآني: (8/2).

(5) الفرقان: 74.

"" والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا."، بتوفيقهم للطَّاعةِ وحيازة الفضائلِ، فإنَّ المؤمنَ إذا ساعده أهلُه في طاعةِ الله- عزَّ وجلَّ- وشاركوه فيها، يُسرُّ بهم قلبُه، وتقرُّ بهم عينُه لما يشاهدُه من مشايعتهم له في مناهجِ الدِّينِ، وتوقُّعِ لحوقِهم به في الجنَّة حسبما وعد بقوله تعالى:" أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ"، ومِن: ابتدائيةٌ أو بيانيةٌ وقرئ" وذريتِنا". وتنكيرُ الأعينِ؛ لإرادة تنكيرِ القُرَّة تعظيماً. وتقليلُها؛ لأنَّ المرادَ أعينُ المتَّقين ولا ريبَ في قلَّتِها نظراً إلى غيرِها"[1].

2- الإيجاز بحذف المبتدأ:

" أما حذفه، فإما: لمجرد الاختصار، والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر، وإما: لذلك مع ضيق المقام، وإما: لتخيل أن في تركه تعويلاً على الشهادة العقل، وفي ذكره تعويلاً على شهادة اللفظ من حيث الظاهر، وكم بين الشهادتين".[2]

وقد ورد هذا الإيجاز في آيات القرآن، ومن ذلك قوله تعالي:" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ."[3].

قوله:" لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ": خبر لمبتدأ محذوف، حذف للاختصار والإيجاز، ودليل الحذف مفهوم مما سبق، وهو ذلك الإرضاع لمن أراد أن يتم الرضاعة.

"فإن قلت: كيف اتصل قوله:" لِمَنْ أَرَادَ" بما قبله؟ قلت: هو بيان لمن توجه إليه الحكم، كقوله تعالى:" هَيْتَ لَكَ"[4]، لك: بيان للمهيت به، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع"[5].

"أي: فهو خبر مبتدأ محذوف، كما أشار إليه ، بتقدير هذا الحكمُ لمِن أراد. قيل: وقد يصرح بهذا المبتدأ في بعض التراكيب كقوله تعالى:" ذلك لمن خشي العنت منكم"[1] ومَا

---

(1) أبي السعود، في تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، طبعة دار الفكر: (150/4، 151).

(2) الإيضاح: ص 62 وما بعدها.

(3) البقرة: 233.

(4) يوسف: 23.

(5) الكشاف: (278/1، 279).

صْدَقُ" مَنْ" هنا من يهمه ذلك: وهو الأب والأم، ومن يقوم مقامهما من ولي الرضيع وحاضنه. والمعنى: أن هذا الحكم يستحقه من أراد إتمام الرضاعة، وأباه الآخر، فإن أرادا معاً عدم إتمام الرضاعة، فذلك معلوم من قوله:" فإن أرادا فصالاً""[2].

قوله:" يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ. مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"[3].

حذف المبتدأ في هذه الآية اختصاراً في قوله:" آباؤكم وأبناؤكم"، وتقديره: المذكورون آباؤكم وأبناؤكم لا شك في ذلك.

[و]" ختم هذه الفرائض المتعلّقة بالأولاد والوالدين، وهي أصول الفرائض بقوله:" آباؤكم وأبناؤكم." الآية، فهما إمّا مسند إليهما قُدّما للاهتمام، وليتمكّن الخبر في ذهن السامع؛ إذ يُلقي سمعه عند ذكر المسند إليهما بشراشره، وإمّا أن تجعلهما خبرين عن مبتدأ محذوف، هو المسند إليه، على طريقة الحذف المعبّر عنه عند علماء المعاني بمتابعة الاستعمال، وذلك عندما يتقدّم حديث عن شيء ثم يراد جمع الخبر. أي: المذكورون آباؤكم وأبناؤكم لا شكّ في ذلكّ"[4].

"هو في الآخرة لا يدرون أي الوالدين أرفع درجة عند الله ليشفع في ولده، وكذا الولد في والديه. وقيل: معناه في الدّنيا، أي: إذا اضطر إلى إنفاقهم للفاقة. وقيل: في الدنيا والآخرة، واللفظ يقتضي ذلك. وقيل: أقرب لكم نفعاً في الميراث والشفاعة. وقيل: أسرع موتاً، فيرثه الآخر. فاقسموا الميراث على ما بين لكم من يعلم النفع والمصلحة، فإنكم لا تدرون أنتم ذلك"[5].

---

(1) النساء: 25.

(2) التحرير والتنوير: (431/2).

(3) النساء: 11.

(4) التحرير والتنوير: (262/3).

(5) البحر المحيط: (542/1).

وقوله:" ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ."[1].

حذف المبتدأ من قوله:" فإخوانكم"، وذلك للإشارة إلى ضميرهم سابقاً، والتقدير: فهم إخوانكم في الدين ومواليكم وأولياؤكم فيه.

" وارتفاع" إخوانُكم" على الإخبار عن مبتدأ محذوف، هو ضمير الأدعياء، أي: فهم لا يَعْدُون أن يوصفوا بالإخوان في الإسلام إن لم يكونوا مواليَ أو يوصفوا بالموالي إن كانوا مواليَ بالحلف، أو بولاية العتاقة وهذا استقراء تام. والإخبار بأنهم إخوان وموال كناية عن الإرشاد إلى دعوتهم بأحد هذين الوجهين"[2].

3- الإيجاز بحذف الفعل:

ويكون الإيجاز بحذف الفعل للتخفيف؛ لكثرة دورانه في الكلام، كما في حذف الفعل مع" إذ"، ومن ذلك قوله تعالى:" وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا."[3].

حذف ما تعلق به " إذ" والتقدير: اذكر إذ، وذلك تخفيفاً، ولكثرة دوران مثل هذا الكلام.

[و]" الآية: شروعٌ في تَعداد بعضٍ آخرَ من قبائح أسلافِ اليهودِ مما ينادي بعدم إيمانِ أخلافِهم، وكلمةُ" إذ" نُصب بإضمار فعلٍ خوطب به النبيُّ- ﷺ- والمؤمنون ليؤدِّيَهم التأملُ في أحوالهم إلى قطع الطمَع عن إيمانهم، أو اليهودُ الموجودون في عهد النبوة توبيخاً لهم بسوء صنيعِ أسلافِهم. أي: اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم" لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله""[4].

---

(1) الأحزاب: 5.

(2) التحرير والتنوير: (262/7).

(3) البقرة: 83.

(4) أبي السعود: (147/1، 148).

" و" إذ" من أسماء الزمان المبهمَة تدل على زمان نسبة ماضية وقعتْ فيه نسبةٌ أخرى ماضية قارنتها، فـ" إذْ" تحتاج إلى جملتين: جملة أصلية، وهي الدالة على المظروف، وتلك هي التي تكون مع جميع الظروف، وجملة تبين الظرف ما هو؛ لأن" إذ" لما كانت مبهمة احتاجت لما يبين زمانها عن بقية الأزمنة، فلذلك لزمت إضافتها إلى الجمل أبداً، والأكثر في الكلام أن تكون" إذ" في محل ظرف لزَمن الفعل، فتكون في محل نصب على المفعول فيه، وقد تخرج" إذ" عن النصب على الظرفية إلى المفعولية كأسماء الزمان المتصرفة. فهي تصير ظرفاً مبهماً متصرفاً، وقد يضاف إليها اسم زمان نحو يومئذٍ وساعتئذٍ فتجر بإضافة صورية؛ ليكون ذكرها وسيلة إلى حذف الجملة المضافةِ هي إليها، وذلك أن" إذ" ملازمة للإضافة، فإذا حذفت جملتها عَلِم السامع أن هنالك حذفاً، فإذا أرادوا أن يحذفوا جملة مع اسم زمان غير" إذ"، خافوا أن لا يهتدي السامع لشيء محذوف حتى يتطلب دليله، فجعلوا" إذْ" قرينة على إضافةٍ، وحذفوا الجملة؛ لينبهوا السامع، فيتطلب دليل المحذوف.[و]" إذْ" اسم زمان مفعولاً به بتقدير: اذكر، ونظيره كثير في القرآن، والمقصود من تعليق الذكر والقصة بالزمان، إنما هو ما حصل في ذلك الزمان من الأحوال. وتخصيص اسم الزمان دون اسم المكان؛ لأن الناس تعارفوا إسناد الحوادث التاريخية والقصص إلى أزمان وقوعها"[1].

ومثلها قوله:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آَلِهَةً."[2].

حذف الفعل، للاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره، والتقدير: واذكر إذ، ولأن الغرض القصة لا خطاب محمد- ﷺ- لأن التسلية تقع بذكر نفس القصة.

[والآية]" عطف على الجمل السابقة التي أولاها" وكذّب به قومك وهو الحقّ"[3] المشتملة على الحجج والمجادلة في شأن إثبات التوحيد وإبطال الشرك، فعُقّبت تلك الحجج بشاهد من أحوال الأنبياء بذكر مجادلة أول رسول أعلَن التوحيد وناظر في إبطال الشرك

---

(1) التحرير والتنوير: (1/396، 397).

(2) يوسف: 4.

(3) الأنعام: 66.

بالحجّة الدامغة والمناظرة الساطعة، ولأنَّها أعدل حجَّة في تاريخ الدين؛ إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجّة على المشركين من العرب بأنّ أباهم لم يكن مشركاً ولا مُقِرّاً للشرك في قومه، وأعظم حجَّة للرسول- ﷺ- إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك والكلام في افتتاح القصّة بـ" إذْ" بتقدير: اذْكُر"[1].

وقوله:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ"[2].

إيجاز بحذف الفعل في قوله:" وَإِذْ قَالَ"، والتقدير: واذكر.

"" وإذا": اسم زمان ماض منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، زيادة في التعجيب من شأن المشركين الذي مر في قوله:" ألم تر إلى الذين بدلّوا نعمة الله كفراً"، فموقع العبرة من الحالين واحد"[3].

4- الإيجاز بحذف المفعول:

وقد يكون الإيجاز بحذف المفعول، ومن ذلك في آيات القرآن، قوله تعالى:" وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ"[4].

المعنى: ولو شاء ربك هدايتهم، أو إيمانهم.

قيل:" ولو شاء رَبُّكَ أن يُؤمِنَ من في الأرْضِ كُلُّهُمْ جَميعاً لَجَعَلَهُمْ مَجْبُورينَ لا خِيارَ لَهُم ولآمَنْ مَنْ في الأرضِ كلُّهم جميعاً عندئذٍ، فَحَذَفَ المفعول لفعل المشيئة، وهذا الحذف هو الغالب في فعل المشيئةِ في النصوص القرآنية، وكذلك فعل الإرادة، إلاَّ إذا كان المفعول أمراً مستغرباً أو مستنكراً أو مستحيلاً، فالداعي البلاغي لذكره أقوى من الداعي البلاغي لحذفه"[5].

---

(1) التحرير والتنوير: (205/6).

(2) إبراهيم: 35.

(3) التحرير والتنوير: (238/7).

(4) يونس: 99.

(5) الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكه الميداني في كتابه، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، طبعة دار القلم بدمشق:(1/ 267).

وقوله تعالى:" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ. وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[1]

" في قوله:" أَن تَسْتَرْضِعُواْ أولادكم" حذف المفعول الأول استغناءً عنه، أي: أن تسترضعوا المراضِعَ لأولادكم. يقال: أرضعتِ المرأةُ الصبيَّ، واسترضعتها إياه، وقيل: إنما يتعدَّى إلى الثاني بحرف الجرِّ. يقال: استرضعتُ المرأةَ للصبيِّ. أي: أن تسترضعوا المراضِعَ لأولادكم، فحُذف حرفُ الجر أيضاً"[2].

" والاسترضاع: أصله طلب إرضاع الطفل، أي: طلب أن ترضع الطفل غير أمه، فالسين والتاء في" تسترضعوا" للطلب، ومفعوله محذوف، وأصله أن تسترضعوا مراضع لأولادكم؛ لأن الفعل يعدَّى بالسين والتاء الدالين على الطلب إلى المفعول المطلوب منه الفعل، فلا يتعدى إلاّ إلى مفعول واحد، وما بعده يعدى إليه بالحرف، وقد يحذف الحرف؛ لكثرة الاستعمال، كما حذف في استرضع واستنجح، فعدي الفعل إلى المجرور على الحذف والإيصال"[3].

وقوله:" أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى"[4].

حذف المفعول به في قوله:" فخلق"، و" فسوى"، وذلك إيجازاً واختصاراً، ولدلالة الكلام عليه في أوله، وهو الإنسان، والتقدير: فخلقه فسواه.

"وضمير" خلق" عائد إلى" ربك". وكذلك عطف" فسَوّى" بالفاء. والتسوية: جعل الشيء سواء، أي: معدلاً مقوماً. أي: فجعله جسداً من عظم ولحم. ومفعول" خلق"، ومفعول" سوى" محذوفان؛ لدلالة الكلام عليهما، أي: فخلقه فسوّاه. وعُقب ذلك بخلقه

---

(1) البقرة: 233.

(2) أبي السعود: (270/1).

(3) التحرير والتنوير: (439/2).

(4) القيامة: 36– 40.

ذكراً أو أنثى، زوجين، ومنهما يكون التناسل أيضاً"[1]. أو" فَخَلَقَ" أي: فقدرَ بأنْ جعلَها مضغةً مخلقةً" فسوى" فعدَّلَ وكمَّل نشأتَهُ" فَجَعَلَ مِنْهُ" منَ الإنسانِ" الزوجين"، أيِ الصنفينِ: الذكر والأنثى"[2].

5- الإيجاز بحذف متعلق الفعل:

ويحذف متعلق الفعل- الجار والمجرور- للإيجاز اختصاراً، واحترازاً عن العبث؛ لظهوره، ومن ذلك قوله تعالى:" وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا."[3].

حذف متعلق" توليتم"، وذلك لدلالة قوله:" لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا."، وذلك للاختصار والاحتراز عن العبث.

"والمعنى: أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان، فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعاً اتبعتموه. والتولي: الإعراض، وإبطال ما التزموه، وحذف متعلقه لدلالة ما تقدم عليه، أي: توليتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به، أي: أشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى واليتامى والمساكين، وقلتم للناس أفحش القول، وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة"[4].

وقوله:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[5].

حذف متعلق" تعفوا"، و" وتصفحوا"، و" وتغفروا"، وذلك لإرادة عموم الترغيب في العفو، ولا يخفى ما فيه من الإيجاز والاختصار.

---

(1) التحرير والتنوير: (368/14).

(2) أبي السعود: (798/5).

(3) البقرة: 83.

(4) التحرير والتنوير: (484/1).

(5) التغابن: 14.

"وعُطف على قوله:" فاحذروهم" جملة:" وإن تعفوا وتصفحوا" إلى آخرها عَطف الاحتراس؛ لأنه إذا كان العفو مطلوباً محبوباً إلى الله- تعالى- وهو لا يكون إلا بعد حصول الذنب، فإن عدم المؤاخذة على مجرد ظنّ العداوة أجدر بالطلب، ففهم النهي عن معاملة الأزواج والأبناء معاملةَ الأعداء لأجل إيجاس العداوة، بل المقصود من التحذير التوقِّي وأخذُ الحيطة لابتداء المؤاخذة، ولذلك قيل: الحزم سوء الظن بالناس، أي: لكن دون أن يبنى على ذلك الظن معاملة من صدر منه ما ظننت به. والعفو: ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها. ولو مع توبيخ. والصفح: الإعراض عن المذنب، أي: ترك عقابه على ذنبه دون التوبيخ. والغفر: ستر الذنب وعدم إشاعته. والجمع بينها هنا إيماء إلى تراتب آثار هذه العداوة، وما تقتضيه آثارها من هذه المعاملات الثلاث. وحذف متعلق الأفعال الثلاثة؛ لظهور أن المراد من أولادكم وأزواجكم، فيما يصدر منهم مما يؤذيكم، ويجوز أن يكون حذف المتعلق؛ لإرادة عموم الترغيب في العفو. وإنما يعفو المرء ويصفح ويغفر عن المذنب؛ إذا كان ذنبه متعلقاً بحق ذلك المرء، وبهذه الأفعال المذكورة هنا مطلقة، وفي أدلة الشريعة تقييدات لها"[1].

6- الإيجاز بحذف المضاف:

وقد يكون الإيجاز بحذف المضاف وإبقاء المضاف إليه؛ لوجود الدليل، ومن ذلك قوله تعالى:" وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا."[2].

"والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ" على تقدير حذف المضاف، أراد: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن. وقيل: معناه يتربصن بعدهم، كقولهم: السمن مَنَوَان بدرهم"[3].

[والآية]:" انتقال إلى بيان عدة الوفاة، بعد الكلام عن عدة الطلاق، وما اتصل بذلك من أحكام الإرضاع عقب الطلاق، تقصياً لما به إصلاح أحوال العائلات، فهو عطف قصة

---

(1) التحرير والتنوير: (13/284، 285).

(2) البقرة: 234.

(3) الكشاف: (1/281).

على قصة. ويُتوفون مبني للمجهول، وهو من الأفعال التي التزمت العرب فيها البناء للمجهول، مثل: عُني واضطر، وذلك في كل فعل قد عرف فاعله ما هو، أو لم يعرفوا له فاعلاً معيناً. وهو من توفاه الله أو توفاه الموت، فاستعمال التوفي منه مجاز، تنزيلاً لعمر الحي منزلة حق للموت، أو لخالق الموت، فقالوا: تُوفي فلان، كما يقال: توفى الحق، ونظيره: قُبض فلان، وقبض الحق، فصار المراد من توفى: مات، كما صار المراد من قبض، وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة عرفية، وجاء الإسلام، فقال الله تعالى:" الله يتقى الأنفس"[1]، وقال:" حتى يتوفاهن الموت"[2]، وقال:" قل يتوفاكم ملك الموت"[3]، فظهر الفاعل المجهول عندهم في مقام التعليم أو الموعظة، وأبقي استعمال الفعل مبنياً للمجهول فيما عدا ذلك؛ إيجازاً وتبعاً للاستعمال"[4].

وقوله:" يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ."[5].

حذف المضاف المجرور في قوله:" في أولادكم" اختصاراً وتخفيفاً والتقدير: في إرث أولادكم.

وابتدأ الله- تعالى- قسمة الميراث بميراث الأبناء؛ لأنّهم أقرب الناس إلى الميت.

" والأولاد: جمع ولد، بوزن فَعَل. والولد: اسم للابن ذكراً كان أو أنثى، ويطلق على الواحد وعلى الجماعة من الأولاد. و" في" هنا للظرفية المجازية، جعلت الوصية كأنّها مظروفة في شأن الأولاد؛ لشدّة تعلّقها به كاتّصال المظروف بالظرف، ومجرورها محذوف، قام المضاف إليه مقامه؛ لظهور أنّ ذوات الأولاد لا تصلح ظرفاً للوصيّة، فتعيّن تقدير مضاف على طريقة

---

(1) الزمر: 42.

(2) النساء: 15.

(3) السجدة: 11.

(4) التحرير والتنوير: (441/2).

(5) النساء: 11.

دلالة الاقتضاء، وتقديره: في إرثِ أولادكم، والمقام يدلّ على المقدّر. فجعل الوصيّة مظروفة في هذا الشأن؛ لشدّة تعلقها به، واحتوائه عليها"[1].

وقوله:" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ."[2].

حذف المضاف من قوله:" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ"، أي: نكاح أمهاتكم.

"" حرمت عليكم أمهاتكم"، معناه: تزوجهنّ. والأمّهات جمع أُمَّةٍ أو أُمَّهةٍ، والعرب أماتوا أمَّهة وأمَّه، وأبقوا جمعه، كما أبْقوا أُمّ وأماتوا جمعه، فلم يسم منهم الأمَّات. واعلم أنّ شريعة الإسلام قد نوّهت ببيان القرابة القريبة، فغرست لها في النفوس وقاراً ينزّه عن شوائب الاستعمال، في اللّهو والرفث؛ إذ الزواج، وإن كانّ غرضاً صالحاً باعتبار غايته، إلاّ أنّه لا يفارق الخاطرَ الأوّل الباعث عليه، وهو خاطر اللهو والتلذّذ. فوقار الولادة، أصلاً وفرعاً، مانع من محاولة اللهو بالوالدة أو المولودة، ولذلك اتّفقت الشرائع على تحريمه، ثم تلاحق ذلك في بنات الإخوة وبنات الأخوات، وكيف يسري الوقار إلى فرع الأخوات، ولا يثبت للأصل، وكذلك سرى وَقار الآباء إلى أخوات الآباء، وهنّ العمّات، ووقار الأمّهات إلى أخواتهنّ وهنّ الخالات، فمرجع تحريم هؤلاء المحرّمات إلى قاعدة المروءة التابعة لكليّة حفظ العِرض، من قسم المناسب الضروري، وذلك من أوائل مظاهر الرقي البشري"[3].

وقوله:" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا. وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا"[4].

---

(1) التحرير والتنوير: (3/256، 257).

(2) النساء: 23.

(3) التحرير والتنوير: (3/295).

(4) الأحزاب: 28، 29.

حذف المضاف وهو مفعول" تردن" وأقيم المضاف إليه مقامه؛ وذلك لأن الإرادة لا تتعدى إلى الحياة، والتقدير: تردن سعة، أو ترف الحياة الدنيا.

"ومعنى:" إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا"، إن كنتن تُؤثرن ما في الحياة من الترف على الاشتغال بالطاعات والزهد، فالكلام على حذف مضاف يقدر صالحاً للعموم؛ إذ لا دليل على إرادة شأن خاص من شؤون الدنيا. وهذه نكتة تعدية فعل" تُرِدْنَ" إلى اسم ذات" الحياة" دون حال من شؤونها. وعطفُ" زينتَها"، عطف خاص على عام، وفي عطفه زيادة تنبيه على أن المضاف المحذوف عام، وأيضاً ففعل" تردْنَ" يؤذن باختيار شيء على غيره، فالمعنى: إن كنتن تردْنَ الانغماس في شؤون الدنيا، وقد دلت على هذا مقابلته بقوله:" وإن كنتُنّ تردْنَ الله ورسوله"[1].

" ومعنى" وإن كنتن تردن الله ورسوله": إن كنتن تُؤْثِرْنَ الله على الحياة الدنيا، أي: تؤثرن رضى الله لما يريده لرسوله، فالكلام على حذف مضاف. وإرضاء الله: فعل ما يحبه الله ويقرب إليه، فتعدية فعل" تردن" إلى اسم ذات الله- تعالى- على تقدير تقتضيه صحة تعلق الإرادة باسم ذات؛ لأن الذات لا تراد حقيقة، فوجب تقدير مضاف، ولزم أن يقدر عاماً، كما تقدم. وإرادة رضى الرسول- ﷺ- كذلك على تقدير، أي: كل ما يرضي الرسول- ﷺ- وأول ذلك أن يَبْقَيْنَ في عشرته طيّبات الأنفس. وإرادة الدار الآخرة: إرادة فَوْزها، فالكلام على حذف مضاف يقتضيه المقام أيضاً، فأسلوب الكلام جرى على إناطة الحكم بالأعيان وهو أسلوب يقتضي تقديراً في الكلام من قبيل دلالة الاقتضاء. وفي حذف المضافات وتعليق الإرادة بأسماء الأعيان الثلاثة مقصدُ أن تكون الإرادة متعلقة بشؤون المضاف إليه التي تتنزل منزلة ذاتِه مع قضاء حق الإيجاز بعد قضاء حق الإعجاز"[2].

---

(1) التحرير والتنوير: (315/10).

(2) التحرير والتنوير: (316/10، 317).

7- الإيجاز بحذف الموصوف:

من بديع الإيجاز بالحذف، حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، وفيه من بديع الإيجاز دلالته على الموصوف وصفته بلفظ واحد، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم كثيراً، ومن ذلك قوله تعالى:" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"[1].

"و" صالحاً": وصف جرى على موصوف محذوف، وظاهر التذكير أن المحذوف تقديره:" ذكراً"، وكان العرب يرغبون في ولادة الذكور. فالدعاء بأن يؤتَيا ذكراً، وأن يكون صالحاً، أي: نافعاً؛ لأنهم لا يعرفون الصلاح الحق، ويَنذران:" لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين""[2]." ثم أقسما على أنهما يكونان من الشاكرين إن آتاهما صالحاً؛ لأن إيتاء الصالح نعمة من الله على والديه. فذكر الولد الصالح يدعو لوالده، فينبغي الشكر عليها؛ إذ هي من أجل النعم، ومعنى صالحاً: مطيعاً لله- تعالى- أي: ولداً طائعاً أو ولداً ذكراً؛ لأنّ الذكورة من الصلاح والجودة"[3].

وقوله:" وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"[4].

"والمعروف: الشيء المتعارف المألوف الذي لا ينكر، فهو الشيء الحسن، أي: صاحبْ والديْك صحبةً حسنة، وانتصب" معروفاً" على أنه وصف لمصدر محذوف مفعول مطلق لـ" صاحِبْهُما"، أي: صِحاباً معروفاً لأمثالهما. وفهم منه اجتناب ما ينكر في مصاحبتهما،

---

(1) الأعراف: 189.

(2) التحرير والتنوير: (213/5).

(3) البحر المحيط: (246/5).

(4) لقمان: 15.

فشمل ذلك معاملة الابن أبويه بالمنكر وشمل ذلك أن يدعو الوَالدُ إلى ما ينكره الله. ولذلك لا يُطاعَان إذا أمرَا بمعصية"[1].

وقوله:" مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ. وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ"[2].

"وانتصب" الحقَ" على أنه صفة لمصدر محذوف مفعول به لـ" يقول". تقديره: الكلام الحق؛ لأن فعل القول لا ينصب إلا الجمل أو ما هو في معنى الجملة نحو:" إنها كلمةٌ هو قائلها"[3]، فالهاء المضاف إليها" قائل" عائدة إلى"كلمة"، وهي مفعول أضيف إليها. وفي الإخبار عن اسم الجلالة وضميره بالمسندَيْن الفعليَيْن، إفادة قصر القلب، أي: هو يقول الحق لا الذين وضعوا لكم تلك المزاعم، وهو يهدي السبيل لا الذين أضلوا الناس بالأوهام"[4].

8- الإيجاز بحذف الصفة:

"وقد يكون الإيجاز بحذف الصفة، وإبقاء الموصوف، ومن ذلك قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا""[5].

حذف من قوله:" ونساء" الموصوف، أي: ونساء كثيرات، اكتفاء بوصف الرجال به واختصاراً وإيجازاً.

[و]"" رِجَالاً كَثِيراً" نعتٌ لـ" رجالاً"، مؤَكّدٌ لما أفادَهُ التنكيرُ من الكثرةِ، والإفرادِ باعتبار معنى الجمع أو العددِ. وقيلَ: هو نعتٌ لمصدرٍ مؤكدٍ للفعل، أي: بثاً كثيراً" وَنِسَاء"، أي:

---

(1) التحرير والتنوير: (161/10).

(2) الأحزاب: 4.

(3) المؤمنون: 100.

(4) التحرير والتنوير: (260/10).

(5) النساء: 1.

كثيرة، وتركُ التصريحِ بها؛ للاكتفاء بالوصف المذكورِ، وإيثارُهما على ذكوراً وإناثاً لتأكيد الكثرةِ والمبالغةِ فيها بترشيح كلِّ فردٍ من الأفراد المبثوثةِ لمبدئيّة غيره"[1].

"وقد شمل قوله:" وخلق منها زوجها" العبرة بهذا الخلق العجيب الذي أصله واحد، ويخرج هو مختلف الشكل والخصائص، والمنّة على الذكران بخلق النساء لهم، والمنّة على النساء بخلق الرجال لهنّ، ثم منّ على النوع بنعمة النسل في قوله:" وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء" مع ما في ذلك من الاعتبار بهذا التكوين العجيب. والبثّ: النشر والتفريق للأشياء الكثيرة. ووصف الرجال، وهو جمع، بكثير، وهو مفرد؛ لأنّ كثير يستوي فيه المفرد والجمع، وقد تقدّم في قوله تعالى:" وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير"[2]. واستغنى عن وصف النساء بكثير؛ لدلالة وصف الرجل به ما يقتضيه فعل البث من الكثرة"[3].

ثانيًا: الإيجاز بحذف جملة.

الإيجاز بحذف جواب الشرط:

ومن الإيجاز بحذف جملة، حذف جواب الشرط، ويحذف كما قال الخطيب القزويني:" لأحد شيئين: أحدهما: أن يحذف لمجرد الاختصار. والثاني: أن يحذف للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن، فلا يتصور مطلوباً، مكروهاً إلا ويجوز أن يكون الأمر أعظم منه، ولو عين شيء اقتصر عليه، وربما حذف أمره عنده[4] .

وقد ورد حذف جواب الشرط في آيات القرآن، ومن ذلك قوله تعالى:" وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ"[5].

---

(1) أبي السعود: (477/1).

(2) آل عمران: 146.

(3) التحرير والتنوير: (217/3).

(4) الإيضاح: ص: 219، 220.

(5) يوسف: 94.

حذف جواب" لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ"، وذلك لمجرد الاختصار، والتقدير: لصدقتموني.

"ووجدَانُ يعقوب ريح يوسف- عليهما السلام- إلهام خارق للعادة جعله الله بشارة له؛ إذ ذكره بشمه الريح الذي ضمّخ به يوسف- عليه السلام- حين خروجه مع إخوته، وهذا من صنف الوحي بدون كلام ملك مُرسل. والريح: الرائحة، وهي ما يعبق من طيب تدركه حاسة الشم. وأكد هذا الخبر بـ" إنّ"، واللام؛ لأنه مظنة الإنكار، ولذلك أعقبه بـ" لولا أن تفندون". وجواب" لولا" محذوف دلّ عليه التأكيد، أي: لولا أن تفندوني لتحققتم ذلك. والتفنيد: النسبة للفنَد بفتحتين، وهو اختلال العقل من الخرف"[1].

[و]"" لَوْلاَ أَن تُفَنّدُونِ"، أي: تنسُبوني إلى الفند، وهو الخرفُ وإنكارُ العقل وفسادُ الرأي مِنُ هرمٍ، يقال: شيخٌ مفنّد، ولا يقال عجوزٌ مفنّدة، إذ لم تكن في شبيبتها ذاتَ رأي، فتُفَنّد في كِبَرِها، وجواب لولا محذوف، أي: لصدقتموني"[2].

وقوله:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[3].

حذف جواب الشرط- هنا- إيجازاً واختصاراً، وترغيباً في فعل الشرط، من قوله:" وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا".

"وجملة:" فإن الله غفور رحيم" دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر. فالتقدير: وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم؛ لأن الله غفور رحيم، أي: للذين يغفرون ويرحمون، وجمع وصف رحيم الخصال الثلاث"[4].

---

(1) التحرير والتنوير: (52/7).

(2) أبي السعود: (138/3).

(3) التغابن: 14.

(4) التحرير والتنوير: (285/13).

"والمعنى:" وَأَن تَعْفُواْ" عن ذنوبِهِم القابلةِ للعفوِ، بأن تكونَ متعلقةً بأمورِ الدُّنيا، أو بأمورِ الدينِ لكن مقارنةٌ للتوبةِ" وَتَصْفَحُواْ" بتركِ التثريبِ، والتعييرِ" وَتَغْفِرُواْ" بإخفائِهَا وتمهيدِ عُذرِهَا" فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" يعاملكُم بمثلِ ما عملتُم ويتفضلُ عليكُم"[1].

ثالثًا: الإيجاز بحذف أكثر من جملة.

الإيجاز من ألطف ألوان البلاغة، وإن النظر إلى نوع منه، وهو الإيجاز بحذف أكثر من جملة، يجد الجمال والحسن، والرشاقة في التعبير، فيؤخذ في الحدث أو القصص أخذاً، ويسافر في المعاني والعبارات سفراً طويلاً دون أن يجد عناء أو مشقة، وما ذلك إلا لحذف جمل كثرت، أو قلت، وانظر إلى ما ورد من هذا الحذف في آيات القرآن، ومن أحسن القصص تجد ذلك جلياً واضحاً، ومن ذلك في آيات القرآن قوله تعالي:" وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ."[2].

" أغنت جملة:" ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم" عن جمل كثيرة، وهي: أنهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ولما دخلوا من حيث أمرهم سَلموا مما كان يخافه عليهم. وما كان دخولهم من حيث أمرهم يُغني عنهم من الله من شيء لوْ قدّر الله أن يحاط بهم، فالكلام إيجاز. ومعنى:" ما كان يغني عنهم من الله من شيء" أنه ما كان يرد عنهم قضاء الله لولا أن الله قدر سلامتهم"[3].

"" وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم" من الأبواب المتفرقة من البلد، قيل: كانت له أربعةُ أبوابٍ، فدخلوا منها وإنما اكتُفى بذكره لاستلزامه الانتهاءَ عما نُهوا عنه" مَا كَانَ" ذلك الدخولُ" يُغْنِي" فيما سيأتي عند وقوعِ ما وقع،" عَنْهُمْ" عن الداخلين؛ لأن المقصودَ به استدفاعُ الضرر عنهم، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل؛ لتحقيق المقارنةِ الواجبةِ بين

---

(1) أبي السعود: (139/3).

(2) يوسف: 68.

(3) التحرير والتنوير: (24/7).

جوابِ لما ومدخولِه، فإن عدمَ الإغناءِ بالفعل إنما يتحقق عند نزولِ المحذورِ لا وقت الدخول، وإنما المتحققُ حينئذ ما أفاده الجمعُ المذكور من عدم كونِ الدخولِ المذكورِ مغْنياً فيما سيأتي فتأمل"[1].

وكذلك قوله:" فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ"[2].

"طوى ذكر سفرهم من بلادهم إلى دخولهم على يوسف- عليه السلام- إذ ليس فيه من العبر شيء"[3]. وإن كانت تفصيلاته كثيرة، فهو حذف لطيف جميل إذ القرآن الكريم يطابق بأعلى درجات المطابقة بين كلام ومقتضى حال السامعين.

"قيل: استقبله يوسفُ والملكُ في أربعة آلاف من الجند والعُظماء وأهلِ مصرَ بأجمعهم، فتلقّوا يعقوبَ- عليه السلام- وهو يمشي متوكئاً على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس، فقال: يا يهوذا، أهذا فرعونُ مصرَ؟ قال: لا بل ولدُك ، فلما لِقيه قال عليه السلام: السلامُ عليك يا مذهبَ الأحزان، وقيل: قال له يوسف: يا أبت بكَيتَ عليّ حتى ذهب بصرُك ألم تعلم أن القيامةَ تجمعنا؟، فقال: بلى، ولكني خشِيتُ أن يُسلَبَ دينُك، فيُحالَ بيني وبينك"[4].

وقوله:" الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا"[5].

"كان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفين أن يقدم" الصالحات" على" الباقيات"؛ لأنهما وإن كانا وصفين لموصوف محذوف إلا أن أعرفهما في وصفية ذلك المحذوف هو الصالحات؛ لأنه قد شاع أن يقال: الأعمال الصالحات ولا يقال الأعمال الباقيات، ولأن بقاءها مترتب على صلاحها، فلا جرم أن الصالحات وصف قام مقام الموصوف، وأغنى عنه كثيراً في الكلام

---

(1) أبي السعود: (125/3).

(2) يوسف: 99.

(3) التحرير والتنوير: (55/7).

(4) أبي السعود: (139/3).

(5) الكهف: 46.

حتى صار لفظ" الصالحات" بمنزلة الاسم الدال على عمل خير، وذلك كثير في القرآن. ولكن خولف مقتضى الظاهر هنا، فقدم" الباقيات"؛ للتنبيه على أن ما ذكر قبله إنما كان مفصولاً؛ لأنه ليس بباقٍ، وهو المال والبنون. فكان هذا التقديم قاضياً لحق الإيجاز؛ لإغنائه عن كلام محذوف، تقديره: أن ذلك زائل أو ما هو بباق والباقيات من الصالحات خير منه، فكان قوله:" فأصبح هشيماً تذروه الرياح"[1] مفيداً للزوال بطريقة التمثيل وهو من دلالة التضمن، وكان قوله:" والباقيات" مفيداً زوال غيرها بطريقة الالتزام، فحصل دلالتان غير مطابقتين، وهما أوقع في صناعة البلاغة، وحصل بثانيتهما تأكيد لمفاد الأولى، فجاء كلاماً مؤكداً موجزاً. وتقديم المال على البنين في الذكر؛ لأنه أسبق خطوراً لأذهان الناس؛ لأنه يرغَب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه ولذلك أيضاً قدم"[2] أيضاً في اللسان العربي.

وقوله:" وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"[3].

"والأمر بإرضاعه يؤذن بجمل طويت، وهي أن الله لما أراد ذلك قدّر أن يكون مظهر ما أراده، هو الجنين الذي في بطن أم موسى ووضعته أمه، وخافت عليه اعتداء أنصار فرعون على وليدها، وتحيرت في أمرها، فألهمت أو أريت ما قصه الله هنا وفي مواضع أخرى.[و] جمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين. فالخبران هما:" وأوحينا إلى أم موسى"، وقوله:" فإذا خفت عليه"؛ لأنه يشعر بأنها ستخاف عليه. والأمران هما:" أرضعيه"، و" ألقيه". والنهيان:" ولا تخافي"، و" لا تحزني". والبشارتان:" إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين""[4].

---

(1) الكهف: 45.

(2) التحرير والتنوير: (333/7).

(3) القصص: 7.

(4) التحرير والتنوير: (73/10– 75).

الفصل الثاني

البديع في القرآن الكريم

ويشتمل على مباحث هي:

المبحث الأول: البديع نشأته وتطوره

المبحث الثاني: جهود المعنيين بعلم البلاغة.

المبحث الثالث: البديع والإعجاز القرآني وأثر القرآن في شاعرية العرب.

المبحث الرابع: منزلة البديع، أقسامه، وألوانه.

المبحث الأول: البديع نشأته وتطوره

المطلب الأول: تعريف البديع.

البديع: لغة إيجاد الشيء واختراعه على غير مثال سابق قال الله تعالى:" بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) (سورة البقرة: آية 117)، فمعنى إبداع السموات والأرض: خلقهما وإيجادهما على غير مثال سابق كما يطلق على الجديد المحدث وعلى الشيء العجيب الغريب يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سجية تلك فيهم غير محدثة *** إن الخلائق فاعلم شرها البدع[1]

و" بدع: في أسماء الله تعالى:" البديع"، هو الخالق المخترع لا عن مثال سابق، فعيل بمعنى مفعل. يقال أبدع فهو مبدع. وفيه: أن تهامة كبديع العسل، حلو أوله حلو آخره البديع: الزق الجديد، شبه به تهامة لطيب هوائها، وأنه لا يتغير كما أن العسل لا يتغير، وفي حديث عمر رضي الله عنه في قيام رمضان:" نعمت البدعة هذه" البدعة بدعتان: بدعة هدى، وبدعة ضلال، فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه الله أو رسوله فهو في حيز المدح، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهو من الأفعال المحمودة، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به؛ لأن النبي – ﷺ– قد جعل له في ذلك ثواباً فقال: من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها وقال في ضده: ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله – ﷺ–. ومن هذا النوع قول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة هذه. لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدحها؛ لأن النبي – ﷺ– لم يسنها لهم ، وإنما صلاها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس لها، ولا كانت في زمن أبي بكر، وإنما عمر رضي الله عنه جمع الناس عليها وندبهم إليها ، فبهذا سماها بدعة، وهي على الحقيقة سنة، لقوله – ﷺ– : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي وقوله: اقتدوا باللذين

(1)لسان العرب: مادة" بدع".

من بعدي أبي بكر وعمر وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر كل محدثة بدعة إنما يريد ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة. وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفا في الذم. وفي حديث الهدي: فأزحفت عليه بالطريق فعي بشأنها إن هي أبدعت يقال أبدعت الناقة إذا انقطعت عن السير بكلال أو ظلع ،كأنه جعل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السير إبداعاً، أي إنشاء أمر خارج عما اعتيد منها. ومنه الحديث:"كيف أصنع بما أبدع علي منها"، وبعضهم يرويه أبدعت. وأبدع على ما لم يسم فاعله. وقال: هكذا يستعمل. والأول أوجه وأقيس. ومنه الحديث" أتاه رجل فقال إني أبدع بي فاحملني"، أي: انقطع بي لكلال راحلتي [1]

وبذلك تدور معاني البديع اللغوية بين إيجاد الشيء واختراعه على غير مثال، وبين العجيب الغريب، والمخالف للطبائع في ناحية الإيجاب أو السلب، ثم أطلق على مباحث علم من علوم البلاغة وهو الصنف الثالث، المسمى علم البديع، وهناك رابطة قوية بين المعنى اللغوي، وبين البديع قسيم علوم البلاغة، وهو أن إيجاد نظم الكلام بصورة جميلة رائعة، هو من العجيب والاختراع على غير مثال.

المطلب الثاني: نشأة علم البديع:

بدأت الكتابة في مسائل البلاغة منذ بدأ التأليف في علوم العربية ومسائلها لكن الإشارة إليها بدأ منذ العصر الجاهلي، وكانت آنذاك في صورة ملاحظات نقدية أو توجيهات تعليمية إرشادية، وفي العصر الإسلامي وجدنا أن القرآن الكريم كان له أثر كبير في تنمية الذوق وتهذيب النفوس، فها هو ذا النبي- ﷺ- يوصي بأن يتخير المسلم الكلمة الملائمة:" لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل: لقست نفسي"، وذلك كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه. وهذا أبو بكر- رضي الله- عنه يمر على رجل معه ثوب، فيقول له: أتبيع الثوب؟، فأجابه: لا، عافاك الله، فيتأذى أبو بكر ويقول للرجل:" قل: لا وعافاك الله"، وتلك إشارة إلى باب من أهم أبواب البلاغة، باب الفصل والوصل. وذاك هو عمر يعجب

(1) ابن الأثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير، في النهاية في غريب الحديث والأثر:(105/1)، طبعة المكتبة العلمية.

بشعر زهير ويقول:" زهير أشعر الناس"، ثم يعلل هذا الحكم:" لأنه لا يتبع حوشي الكلام، ولا يعاضل في المنطق، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، ولا يقول ما لا يعرف"[1].

وسأل معاوية صحار العبدي وقد راعه بخطابته:" ما تعدون البلاغة فيكم؟، قال: البلاغة الإيجاز. فقال معاوية: وما الإيجاز؟، قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ"[2].

وعندما قامت سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية، ودعا الشعراء إلى الابتعاد عن الألفاظ الغريبة وإلى تخير الألفاظ الملائمة إلى تتسق مع السياق ،كما نبهوا إلى ضرورة مراعاة التناظر بين الكلمات وألا يباعد الشاعر في القول وإلى أن تكون الأبيات ملتحمة متقارنة.

ابن المقفع: يقول وقد سئل عن البلاغة:" البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثير فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون شعراً منها ما يكون سجعاً وخطبا ومنها ما يكون رسائل؛ فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل والإطالة في غير إملال. وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته"[3].

وفي العصر العباسي ونتيجة لتفشي المجون وانتشار الزندقة وشيوع الجهر بالفسق وتعقد الحياة العربية، طغت عليها أساليب المدينة والتحضر، والشعر كما هو معروف مرآة تعكس عليها حياة الأمم، ولسان يترجم عن أحوالها وجوانب حياتها، ومن الطبعي أن يتأثر الشعر بهذه الحياة الجديدة، فيلبس حللاً من الزخرف والزينة والتنميق، ونظر الشعراء في شعر أسلافهم الأقدمين، فوجدوا أن الأقدمين صرفوا هممهم إلى المعاني، وكان لهم بها فضل عناية، فمعاني الفخر والمديح والغزل والرثاء وغيرها طرقت منذ قرون، كما وجدوا أن الأقدمين سبقوا إلى

---

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، في البيان والتبيين:(151/1)، الناشر : دار صعب، بيروت، الطبعة الأولى، 1968م، تحقيق : المحامي فوزي عطوي.

(2) المرجع السابق:(69/1).

(3) البيان والتبيين:(205/1).

الألفاظ القوية والعبارات الجزلة والأساليب المرضية، فصرفوا همهم إلى الصياغة؛ ليلبسوها أبهى حلل البيان، وأسمى صفات الكلام وذلك لا يتأتى إلا بالزخرف والزينة والبهرج والتوليد في المعاني، فكلفوا بها وتعمدوها وسموه البديع، وأصبح لهم صنعة روادها من أمثال: بشار بن برد، ومسلم بن الوليد والعتابي، ومنصور النمري وأبي نواس وأبي تمام والبحتري وعبد الله بن المعتز فقد كان الواحد منهم يقصد إلى تلك الأصباغ، ويكثر منها في شعره ولكنهم لم يكونوا سواء في تلك الصنعة من حيث الإقلال والإكثار والتسهيل والتوعر والطابع والاتجاه.

وفي هذا العصر بدأ التأليف ونشط في مختلف العلوم العربية وسجلت الملاحظات والمسائل البلاغية في كل المؤلفات. وهي إما لمؤلفيها وإما محكية ومنقولة عن غيرهم ثم نمت وتطورت حتى صارت إلى ماهي عليه الآن.

المبحث الثاني: جهود المعنيين بعلم البلاغة.

أ) عبد الله بن المعتز:

سجل ألوان البديع التي كثرت في الشعر حولها إلى قواعد وأصول فكان له ما أراد بكتابه الذي يعد بداية التأليف في هذ العلم وهو كتابه(البديع).

وتحول البديع بهذا المؤلف من أصباغ تتناثر في الشعر ويهتم بها الشعراء وحدهم إلى قواعد وأصول، يضمها كتاب مستقل، ويعضدها جامعها بالشواهد والأمثلة التي توضح معانيها، وتبين طرائقها، وكان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو الدفاع عن أنصار البديع، وأن يثبت ابن المعتز أن هذه الألوان معروفة في العربية منذ القديم، وأن كثيراً منها ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وقد صرح بهذا الهدف في مقدمة كتابه بقوله: إنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع، وفي دون ما ذكرناه مبلغ الغاية التي قصدنا إليها.

ب) سيبويه:

تحدث سيبويه في الكتاب عن بعض خصائص التراكيب، وأوجه الدقة في استعمال الألفاظ مثل: التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف، وعن معاني بعض الأدوات مثل أدوات الاستفهام وأدوات الشرط وذا ما تناوله البلاغيون فيما بعد في علم المعاني.

وعلى اعتبار اشتمال البديع لأقسام علم البلاغة العربية يكون سيبويه قد أسهم بقدر لابأس به في الحديث عن البيد والارتقاء به.

ج) الفراء:

ويتحدث الفراء في كتابه معاني القرآن عن مسائل بلاغية مختلفة كالتقديم والإيجاز والإطناب والمعاني التي تفيدها بعض الأدوات، كأدوات الاستفهام والتشبيه والاستعارة والكناية، وهي إشارات موجزة يدركها المتأمل في كتابه معاني القرآن الكريم. نراه مثلا إلى الكناية في الآية الكريمة:(ولكن لا تواعدهن سراً)؛ فيقول:" السر في هذا الموضع: النكاح ثم يرويه عن ابن عباس رضي الله عنه وينشد لامرئ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني *** كبرت وألا يشهد السر أمثالي[1]

ويتحدث عن الاستعارة في قوله تعالى:(وإنهما لبإمام مبين) [2] فيقول:" بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم فجعل الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع"[3].

د) أبو عبيدة:

" ألف أبو عبيدة كتابه "مجاز القرآن" بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه إذ سأله سائل في مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه في قوله تعالى (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) [4]، فقال: إنما

---

(1) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، في معاني القرآن:(1/ 153)، الناشر : دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي نجار، وعبدالفتاح إسماعيل شلبي.

(2) سورة الحجرات: آية 79.

(3) معاني القرآن:(91/2).

(4) سورة الصافات: آية 65

يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف ، فأجاب أبو عبيدة : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي *** ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به[1]

هـ) الأصمعي:

م يترك الأصمعي كتاباً في صيغ التعبير القرآني كالفراء وأبي عبيدة، ولكن من جاءوا بعده كابن المعتز وابن رشيق وأبي هلال وقدامة نقلوا آراءه وإشاراته البلاغية ، فقد تحدث عن الجناس ويقال إنه ألف فيه كتاباً وتحد عن المطابقة وعن صورة أخرى للالتفات غير الصورة التي ذكرها أبو عبيدة . كما تحدث عن الإيغال وعن المبالغة.

وتحدث الأصمعي عن الالتفات وهو أول من وضع له هذه التسمية وقد أضاف له صورة أخرى غير التي ذكرها أبو عبيدة وهي أن يفرغ المتكلم من المعنى ونظن أنه سيتجاوزه إلى غيره فإذا به يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره.

و) الجاحظ:

يعد الجاحظ من الأعلام الذين أسهموا بنصيب وافر في إرساء دعائم الفنون البلاغية، فلقد أشار في كتاباته إلى كثير من الأسس البلاغية التي أثرت البحث البلاغي، وألهمت الدارسين الكثير من الآراء والأفكار.

والناظر في كتابات الجاحظ في" البيان والتبيين" أو" الحيوان" أو" البخلاء" أو في" رسائله". يقف على أسلوبه المتميز بكثرة الاستطراد والخروج من فكرة إلى أخرى ثم العود بعد زمن طويل إلى الفكرة الأولى ، ولعله يهدف بهذا إلى دفع الملل عن السامع أو القارئ، كما أن الأسس البلاغية التي يعرض لها تراها متناثرة في كتاباته والفكرة الواحدة تراه يعرضها في عدة

(1)ابن حجر، احمد بن علي بن محمد المشهور بابن حجر العسقلاني(773هـ– 852هـ)، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري الناشر مكتبة الرشد، سنة النشر 1409هـ–1989م، الرياض المملكة العربية السعودية.

مواضع ، مما يتطلب من الدارس أن يبذل الكثير من الجهد في تتبعه واستقصاء كتاباته حتى يقف على هذه الأسس ويلم بتلك الفكر.

ز) ابن قتيبة: يعد ابن قتيبة:

من أعلام أهل السنة كما أن الجاحظ من أعلام المعتزلة ، وقد ألف ابن قتيبة كتابه:" تأويل مشكل القرآن" للرد على الملاحدة الذين يطعنون في أساليب القرآن الكريم ويشككون في نظمه وإعرابه، وقد عرض في كتابه للكثير من آي الذكر الحكيم مستشهداً لها بنصوص الشعر القديم ليبطل دعوى الطاعنين، ويذهب ريب المشككين

كما أن له كتاب" الشعر والشعراء"، و" تأويل مختلف الحديث"، وفي هذه الكتب نثر ابن قتيبة ملاحظاته البلاغية، فتحدث عن المجاز بمعناه الواسع وتحدث عن الحذف والتقديم والتأخير والتكرار في القصص القرآني، وعن مخالفة ظاهر اللفظ معناه وهو ما عرف فيما بعد باسم المشاكلة كقوله تعالى(ويمكرون ويمكر الله). كما تحدث عن المبالغة وعن المقلوب كتسميتهم اللديغ سليما والفلاة مفازة وتحدث عن الاستعارة وعن الاستفهام وإفادته لمعانيه البلاغية وعن الأمر وإفادته لغير طلب الفعل.. إلى غير ذلك من الملاحظات التي أثارها وتحدث عنها.

ح) المبرد:

اشتهر المبرد بالنحو فعرفه أكثر القدماء بمحمد بن يزيد النحوي وكان فصيحاً بليغاً مليح الاختيار ثقة فيما يرويه ، وقد ضمن كتابه " الكامل " كثيراً من أنواع البديع وألوان البلاغة ، من أهمها حديثه عن التشبيه حيث أفرد له بابا وذكر أن العرب تشبه على أربعة أضرب تشبيه مفرط وتشبيه مصيب وتشبيه مقلوب وتشبيه بعيد وقد ساق كثيراً من الشواهد منها قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا *** لدى وكرها العناب والحشف البالي

ط) قدامة بن جعفر:

يعد قدامة بن جعفر من أغزر أهل عصره علماً وأوسعهم ثقافة، فقد أخذ بحظ وافر من علوم متنوعة، وبرز في اللغة والأدب والفقه والكلام الفلسفة والمنطق، كان نصرانياً ثم أسلم على يد المكتفي بالله، وقد درس قدامة الفلسفة والمنطق وتأثر بهما تفكيراً ومنهجاً في مؤلفاته التي بلغت أربعة عشر مؤلفاً في موضوعات مختلفة. [1]

وأسهم بكتابه" نقد الشعر" بنصيب وافر في نمو البلاغة وتطور مسائلها وتأثر بمن سبقه وأثر فيمن بعده؛ فقد كان مفتاحاً من مفاتيح أبواب النقد الأدبي، وقامت على أثره دراسات كثيرة في الأدب والنقد.

ي) عبد القاهر الجرجاني:

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، له مؤلفات عديدة أهمها" أسرار البلاغة" و" دلائل الإعجاز" فقد استطاع عبد القاهر أن يفيد من المؤلفات السابقة وأن يبرز في هذين الكتابين مسائل البلاغة بالشرح والتحليل والإكثار من الشواهد والأمثلة وأول ما نلاحظه أن كتاب" أسرار البلاغة" قد تضمن مسائل البيان وبعض فنون البديع وأن كتاب" دلائل الإعجاز" قد تناول مسائل المعاني ، وهذا لا يعني أن عبد القاهر قد قسم علوم البلاغة، إن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة: معان، وبيان وبديع، لم يتم إلا في عهد السكاكي، أما عبد القاهر وسابقوه فقد كانت البلاغة عندهم علماً واحداً يتناول مسائل البديع وفنونه[2].

---

(1) الحموي، ياقوت الحموي، في معجم الأدباء: (12/17).

(2) ابن زاكور، محمد بن قاسم بن زاكور الصنيع البديع في شرح الحلة ذات البديع: 235، جامعة محمد خامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1992، المغرب.

المبحث الثالث: البديع والإعجاز القرآني، أثر القرآن في شاعرية العرب.

المطلب الأول: مدخل البديع في الإعجاز القرآني.

إن من يتأمل في بلاغة القرآن الكريم يجد أن فنون البديع لا تقل شيئاً في إظهار روعة القرآن الكريم وسر فصاحته وبلاغته عن مسائل علمي المعاني والبيان، وأن ألوان البديع يستدل بها على إعجاز القرآن الكريم، كما يستدل على إعجازه بمسائل علم المعاني: التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والالتفات، والإيجاز والإطناب، والذكر والحذف، والفصل والوصل... ومسائل علم البيان: والتشبيه والاستعارة، والمجاز والكناية

والأمثلة القرآنية المشتملة على ألوان البديع أكثر من أن يتسع لها هذا المقام، هي كثيرة ومبثوثة في أساليب القرآن وآياته، وكلها تشهد بأن حسنها ذاتي، داخل في صميم البلاغة، ودال على عظمة القرآن وإعجازه، ولم تكتف القرآن الكريم بذكر الكلام مطابقاً لمقتضى الحال فقط وإنما آثر الإتيان به في أبهى صورة من الحسن اللفظي والمعنوي.

وقد أكد الدكتور محمد أبو موسى" أكد على أن البلاغة القرآنية يتساوى فيها ألوان البديع وفنون المعاني والبيان، فبلاغة القرآن المعجز تحيط بكل هذه الألوان والفنون، وذلك في قوله عن ألوان البديع في تفسير الزمخشري: عرض الزمخشري للمشاكلة وللمطابقة وللجناس وللمزاوجة وللتقسيم، وغير ذلك مما جعله المتأخرون من علم البديع، كما عرض لفنون البيان والمعاني، ولا أجد من كلامه ما يدل على أن الألوان التي جعلها المتأخرون من علم البديع دون غيرها من فنون البيان والمعاني، من حيث أثرها في قوة الكلام وبلاغته، وقد نظرت في كتابه كله ووقفت عند كل لون ذكره— يعني الزمخشري — من هذه الألوان، فوجدته يشير إلى بلاغتها، وإلى أنها فن من كلامه البديع، وطراز عجيب، وأنها من مستغرب فنون البلاغة، ثم

يشيد ببلاغة القرآن المعجزة التي تحيط بكل هذا الفنون، وتوجد فيها على أحسن صورة، وأقوم منهج"[1].

ومما سبق نقول: أن منزلة البديع في مجال الدراسات الإسلامية والتعرف على أسرار القرآن ودلائل إعجازه، لا تقل شأناً عن منزلة أخويها من علمي المعاني والبيان، بل ولا عن غيرها من سائر العلوم العربية والدينية، وأن القول بغير ذلك أو بجعلها تابعة لأخويها أو ذيلاً لهما أو يجعل حسنهما عرضاً لا ذاتاً، كلام ينقصه الدقة ولا يتفق مع النظرة العلمية للأمور؛ إذ ليس القصور في جانب من جوانب تحسين اللفظ مما يليق برب العزة وكتابه العزيز.

وألوان البديع قد لا تحتاج إلى ما تحتاج إليه فنون البيان من الدراسة والتحليل، فكل لون منها مستقل عن صاحبه... فليس فن منها مبنياً على فن وليس فن منها قسيماً لفن، وذلك بخلاف ألوان البيان التي نجدها متشابكة؛ فالاستعارة مبنية على التشبيه والتمثيل قسم من التشبيه والمجاز منه مجاز في الكلمة ومنه مجاز في الحكم والمجاز في الكلمة ينقسم إلى مجاز مرسل واستعارة والكناية أخت المجاز وغير ذلك من الروابط بين هذه الفنون...؛ لذلك كانت مباحث البيان كأنها مبحث واحد وكانت مباحث البديع كأنها مباحث متفرقة، ومن هنا تأخر نضج المباحث البيانية في حين سبقت مباحث ألوان البديع واكتملت تقريباً قبل الجرجاني. اللهم إلا تلك الفنون التي أضافها المتأخرون في عصر البديعيات وهذه إضافات لم تغير شيئاً فيما سبق العلماء إلى دراسته من هذه الألوان[2].

المطلب الثاني: أثر القرآن في شاعرية العرب:

لما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم كان للدين الجديد والقرآن الكريم أثرهما الذي لا يجحد على عواطف العرب ومشاعرهم، وجميع مناحي حياتهم، فهدّأ عواطفهم الثائرة،

(1) أبو موسى، محمد حسنين أبو موسى، في البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية: ص 479 – دار الفكر العربي، القاهرة.

(2) أبو موسى، محمد حسنين أبو موسى، في البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية: ص 501 – دار الفكر العربي، القاهرة.

وأرهف مشاعرهم وتشربت جوانب حياتهم روح القرآن الكريم ومعانيه، ولا عجب إذا ظهر أثر القرآن ومعانيه وروحه في أدبهم فهو الآية والغاية وإليه المنتهى في بلاغة القول.

ومن آثاره في أدباء العرب: أن جاء شعرهم مهذباً في لفظه وأساليبه، فرقت الألفاظ وأحكمت الأساليب فضلاً عن المعاني والأغراض التي دارت حول الدعوة وصاحبها، وحول القرآن الكريم الذي أدهشهم وملك عقولهم، وإن كان الطابع العام للشعر الإسلامي بقي كما كان في العصر الجاهلي، فلم يبتكر شعراء الإسلام مذهباً جديداً في الشعر، كما بقيت الصناعة اللفظية كما هي موضع اهتمام القوم دون تعمل أو استكراه.

الحقيقة التي لا جدال فيها أن القرآن الكريم هو كتاب العربية الأكبر ومعجزاته البيانية الخالدة، ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل فرد عربي أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها، ويستشف أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير والأداء.

ثم إن القرآن الكريم هو مناط الوحدة الذوقية والوجدانية لمختلف الشعوب التي اتخذت العربية لساناً لها، ومهما تتعدد لهجاتها المحلية وتختلف أمزجتها وتباين أساليبها الخاصة في الفن القولي يبق القرآن الكريم، في نقاء أصالته، كتابها القيم الذي تلتقي عنده الشعوب العربية اللسان، على اختلاف لهجاتها وأقطارها، وتفاوت تأثيرها بالعوامل الإقليمية، كما تلتقي عنده كتاب عقيدة وشريعة ومنهاج.

المبحث الرابع: منزلة البديع، أقسامه، وألوانه.

المطلب الأول: منزلة البديع بين الدراسات البلاغية، وأقسامه:

منزلة البديع:

علم البديع هو أحد علوم ثلاثة" المعاني والبيان والبديع" وتحتل هذه العلوم مكانة سامية ومرتبة رفيعة بين العلوم الإسلامية والعربية على السواء، فموضع هذه العلوم من علوم

العربية أو العلوم الإسلامية موضع الرأس من الإنسان، أو اليتيمة من قلائد العقيان فهو مستودع سرها ومظهر جمالها وجلالها، فلا فضيلة لكلام على كلام إلا بما يحويه من لطائفها ويودع فيه من مزاياها وخصائصها، ولا تبريز لمتكلم على آخر إلا بما يحوق من وشيها، ويلفظه من دررها، وينفثه من سحرها، ويجنيه من بائع ثمرها، فعلوم البلاغة تعد وسيلة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم، فإذا غفل الإنسان علم البلاغة وأخل بمعرفة قواعدها، لم يستطع أن يدرك سر إعجاز القرآن الكريم، ولم يعرف من أي جهة أعجز الله العرب عن أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، وكما أن علوم البلاغة تعد وسيلة لمعرفة الإعجاز القرآني، فإنه لا غنى عنها لمن أراد أن يفهم كتب الله ويعرف أحكامه، ويتبين حلاله وحرامه غير ذلك من علوم القرآن ومعارف الذكر الحكيم.

والبلاغة بأقسامها ومنها محاسن البديع بها يعرف وجه إعجاز القرآن الكريم كما يعرف صحة نبوة محمد – ﷺ– وتدل على أن من يتقنها هو من يملك ناصية البيان وحسن التعبير وجماله وروعة اللفظ وحسنه.

المطلب الثاني: أقسام البديع، وألوانه.

أقسامه:

ذهب العلماء في تقسيم البديع إلى قسمين، محسنات لفظية، ومحسنات معنوية، وفرقوا بينهما في التعريف فقالوا: المحسنات معنوية: ما أريد بها تحسين المعنى، كالطباق والمقابلة، والتورية، والمشاكلة وحسن التعليل، والتوجيه أو الإيهام، وإن تبع ذلك تحسين اللفظ؛ لأن المقصود تحسين المعنى بداءة.

والمحسنات اللفظية: ما أريد بها تحسين اللفظ، كالجناس، والسجع، ورد العجز على الصدر،

وإن تبع ذلك تحسين المعنى؛ لأن المقصود تحسين اللفظة بداءة.

ألوانه:

1- التجنيس: وابن المعتز هو الواضع لهذا اللقب، وهو أول من أفرد هذا الباب بالبحث والتأليف؛ فقد عرفه وذكر أقسامه وأفاض في ذكر شواهده وذكر مثلًا لمعيبه. وبذلك ينتهي الباب [1]

2- المطابقة:

وقد ذكر ابن المعتز هذا الباب في كتابه البديع وفيه كثير من الشواهد، وذكر مثلًا لما عيب منه. ومن الغريب أن يكون أرسطو قد تكلم على المطابقة والمقابلة؛ حيث ذكر التقابل وأن المتقابلات إذا توافقت أحدثت رونقًا لظهور بعضها ببعض، وأن المعتدل" الذي لا يفرط في الصفة حتى يدخل في حيز الكذب الظاهر" وخصوصًا إذا شحن بالمطابقات المأخوذة من المتقابلات لذيذ جدًّا، وأن المتقابلات بعضها أضداد وبعضها كأضداد"[2].

وابن المعتز فوق معرفته بالمطابقة فهو يعرف المقابلة ويذكرها باسمها، ولم يذكرها في كتابه البديع. وقد ذكر قدامة المقابلة وعرَّفها في نقد الشعر تعريفًا تأثر فيه بأرسطو، وأخذ السكاكي تعريف قدامة رأيًا له في تعريفه للمقابلة. وفي الصناعتين باب للمطابقة تأثير فيه أبو هلال بابن المعتز إلى حد كبير، وكذلك فعل ابن رشيق"[3]

---

(1) ابن رشيق القيرواني، في العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق في العمدة: (1/ 299)، وابن المعتز في البديع: (6/ 55، 56، 71، 73)، والصناعتين: ص 310، 328.

(2)البديع: (6/ 90-92).

(3) نقد الشعر: ص 79، الصناعتين: ص 297-310.

3- رد العجز على الصدر: وهو اصطلاح جديد لابن المعتز لم يسبق إليه، وقد ذكر ابن المعتز أقسامه وشواهد كثيرة له، ثم ذكر مثلًا قليلة لما عيب منه، وقد سار على نهجه أبو هلال. وابن رشيق يسميه التصدير، ونقل فيه كثيرًا من مثل ابن المعتز وشواهده[1]

ويذكر ابن رشيق من مثله نقلًا عن ابن المعتز:

ولم يحفظ مضاع المجد شيء *** من الأشياء كالمال المضاع

وهذا البيت غير موجود في نسخة البديع الموجودة بين أيدينا مما يدل على نقصها. وابن الأثير يجعل رد العجز على الصدر ضربًا من التجنيس[2].

4 – الاعتراض:

ويعرف ابن المعتز الاعتراض بأنه اعترض كلام في كلام لم يتم معناه ثم يعود إليه فيتمه في بيت واحد، وقد تبعه أبو هلال[3].

5- الرجوع:

عرفه ابن المعتز بأن تقول شيئًا وترجع عنه، وذكر شواهد له[4].

وابن المعتز أول مَن ابتكر هذا القلب له، فكانت الرواة تعيب مثل هذا الاسلوب؛ لأن الشاعر يكذب نفسه. كان أستاذه الأسدي يشتد في نقد زهير في قوله: "بلى وغيرها الأرواح والديم"[1]، ويرد صاحب العقد على هذا النقد[2]، وابن المعتز يعده من ألوان البديع.

---

(1) البديع: ص 93 ، البديع: 94–100، الصناعتين: ص 377–380 ، العمدة:(2/ 3).

(2) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، في المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ص 100، المكتبة العصرية – بيروت، لبنان، 1995م، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد.

(3) البديع: ص 108، صناعتين: ص 385.

(4) البديع: ص 108، 109، وخزانة الأدب: 367.

6- حسن الخروج:

قال الشاعر: وأحببت من حبها الباخلين ... حتى ومقت ابن سلم سعيدا

فالظاهر أن ابن المعتز يريد بحسن الخروج ما يشمل التخلص والاستطراد، والحاتمي يسمي الخروج استطرادًا اتساعًا -كما يقول ابن رشيق5- وعلى أي حال فالاستطراد قريب من التخلص، وكان شبيب بن شيبة يقول: الناس موكلون بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وجودة القطع هي حسن التخلص؛ وهو ضرب من البديع يظهر الشاعر أنه يذهب لمعنى فيعن له آخر فيأتي به كأنه على غير قصد وعليه يبنى وإليه كان مغزاه، وقد أكثر المحدثون منه.

7- تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو من ابتكار ابن المعتز واصطلاحه، ويجعله أبو هلال ضربًا من أضرب نوع من البديع يسميه الاستثناء، وكذلك فعل ابن رشيق[3].

8- تجاهل العارف: وهو من ابتكار ابن المعتز واصطلاحه ، وتبعه أبو هلال[4].

9- الهزل يراد به الجد: وهو من ابتكار ابن المعتز واصطلاحه، وفي الجاحظ مثل تصلح أن تكون من هذا النوع[5]

---

(1) المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني(ت 384هـ)، في الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: ص 35، 36.

(2) ابن عبد ربه الأندلسي، في العقد الفريد: (3/ 316).

(3) الصناعتين: ص 396 ، العمدة: (2/ 2 45).

(4) البديع: ص 111، 112، الصناعتين: ص 387-389.

(5) البديع: ص 112، 113، العمدة: (2/ 245).

10- حسن التضمين للشعر:

وهو أن يضمن الشاعر شيئًا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورًا، وقد عرف هذا المعنى من قبل

ابن المعتز؛ ولكنهم لم يلقبوه هذا اللقب، وقد نقد عبد الله بن طاهر أبا تمام في اقتباسه من القرآن في شعر له، ورأى أن القرآن أجل من أن يستعار شيء من ألفاظه للشعر[1]، ويذكر ابن المدبر حسن الأخذ من الشعر والأمثال[2]، ويقول المبرد في أبي العتاهية: لا يكاد يخلو شعره مما تقدم من الأخبار والآثار[3]، ويقول ابن سلام: إن الزِّبْرِقَان أخذ بيت النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له *** وتتقي حومة المستنفر العادي

في شعره كالمثل حين جاء في موضعه لا مجتلبًا له، وقد تفعل العرب ذلك لا يريدون به السرقة[4] ويذكر ابن المعتز شواهد لهذا الباب، واحتذاه أبو هلال وابن رشيق.

11- التعريض والكناية:

التعريض أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء.

---

(1) الصولي، في كتابه أخبار أبي تمام: ص 211.

(2) ابن المدبر، إبراهيم ابن المدبر في كتابه الرسالة العذراء، تحقيق/ الدكتور زكي مبارك، طبعة دار الكتب المصرية.

(3) المبرد، في كتابه الكامل:(2/ 238).

(4) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، في المزهر في علوم اللغة وأنواعها:(1/ 144)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، 1998م، تحقيق : فؤاد علي منصور.

12- حسن التشبيه:

لقد كان ابن المعتز مهتماً بالتشبيه وعده له من ألوان البديع متمشيًا مع فطرته وذوقه الأدبي الذي شغف بهذا الصبغ البياني شغفًا خاصًّا.

13- إعنات الشاعر نفسه في القوافي:

وهو باب لزوم ما يلزم، وهو من إفراد ابن المعتز، وإذا كان ابن المعتز يسميه إعناتًا فكيف يعده من البديع؟[1]

14- حسن الابتداء:

سمى ابن المعتز براعة الاستهلال حسن الابتداء،[2] وأورد في هذا الباب قول النابغة: "كليني لهم يا أميمة ناصب"، قال ابن أبي الأصبع: ولقد أحسن ابن المعتز الاختيار[3]، ويقول الحلبي: وحسن الابتداء تسمية ابن المعتز وأراد بها ابتداء القصائد، وقد فرع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال[4]؛ولكن ابن المعتز هو الذي سبق إلى هذه التسمية، وأفاض في ذكر شواهد هذا الباب مما احتذاه فيه أبو هلال وسواه.

---

(1) نقد الشعر: ص 65-70 ، والبديع: ص 132-133.

(2) البديع: ص 133-135.

(3) البغدادي، أبو بكر علي بن عبد الله، في خزانة الأدب: ص3، تحقيق الدكتورة كوكب دياب، طبعة دار صادر بيروت لبنان.

(4) الحلبي، الامام الفاضل جامع أشتات الفضائل شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سليمان الحلبي الحنفي المتوفى سنة 735 هـ، في حسن التوسل الى صناعة الترسل: ص 93، طبع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة 1298 هـ.

الفصل الثالث: صور من بديع القرآن.

ويشتمل على مبحثين هما:

المبحث الأول: فن البديع والقرآن الكريم.

المبحث الثاني: من أسرار البيان والبديع في سورة الشرح.

المبحث الأول: فن البديع في القرآن الكريم.

لو فتشنا عن ألوان البديع في القرآن الكريم اشتملت آياته على كثير من الألوان البديعية، التي جاءت في أعلى درجات الروعة والجمال وعلى سبيل المثال لا الحصر الطباق:" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[1].

البحوث البديعية تبدو متناثرة في كتب المفسرين والمتكلمين والأدباء الذين حرصوا على أن يبينوا إعجاز القرآن الكريم الذي جعله الله دليلاً على رسالة محمد- ﷺ- وبرهاناً على صدق دعوته ، جامعاً لفنون البلاغة ، حاوياً لأطراف الفصاحة ، محكماً في نظمه إذ تحدى الفصحاء فوقفوا أمام هذا النظم موقف الإعجاب والذهول والحيرة[2]وكذبوا النبي - ﷺ- وعارضوا القرآن، ثم لم يلبثوا أن ثابوا إلى رشدهم ودخلوا في دين الله أفواجاً[3]، ولم تلبث ثقافاتهم أن ظهرت في عقائدهم وتفكيرهم في فهم القرآن بحسب مذهبهم السياسي أو الديني منهم:

(1) المعتزلة:

وإمامهم الجاحظ وكان من أئمة البيان، ألف كتاب عن نظم القرآن وأسلوبه[4]للرد على القائلين بأن القرآن في مقدور العباد الإتيان بمثله ولكن الله صرفهم عن ذلك وبيان أن القرآن معجز للعرب بنظمه وأسلوبه، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ، ولذلك يحتج للقرآن بقوله في وصف بيانه ، كما أنه فطن أيضاً إلى أن لألفاظ القرآن ميزة أزيد مما سق من حيث النظم، وهي إتيان بعض ألفاظه مقترنة متصاحبة لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة والجوع والخوف والجنة والنار والرغبة والرهبة والمهاجرين والأنصار والجن والإنس[5]، لم يقف عند هذا الحد بل

---

(1) آل عمران: آية 26.

(2) النجار، محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: ص 7، مكتبة الشباب، الطبعة الأولى.

(3) الفرقان لابن الخطيب: ص29.

(4) الحيوان:(1/1).

(5) البيان والتبيين:(21/1).

إنه تكلم عن أنواع بديعية استخرج أمثلتها من القرآن ، وعرفت هذه الأنواع فيما بعد باسم البديع، وإن كان الجاحظ لم يضع لها قوانين، أو يفصلها التفصيل الذي وجدت عليه فيما بعد ، فتكلم عن المجاز وجعله شاملاً للاستعارة والتشبيه عند كلامه، ولا شك أن ما قاله الجاحظ من الكلام على (بديع القرآن) كلام غير مقصود لذاته إذ لم يرد أن يتكلم عن فن البديع أو البلاغة، بل كان يتعرض لذلك استطراداً، وتلك طريقته في كتابته ومؤلفاته ، ولكن ما عمله أسدى إلى البيان العربي عامة ، وبديع القرآن وبلاغته خاصة اليد الطولى بجهوده التي بذلها في دراسة أسلوب القرآن ، والتي أثمرت ثمرة طيبة في حياة النقد والبلاغة لأنه آمن إيماناً لا يساوره شك بأن القرآن في الذروة العليا من البلاغة وأسلوبه مثل أعلى للأسلوب العربي ولذا كان يقدم الشاهد القرآني على غيره[1].

(2) المفسرون:

كان لهم في تنمية البلاغة، والكشف عن أسرارها، وخاصة بلاغة القرآن، وإن كان تفسيرهم لغوياً في المرحلة الأوى، وتأويلاً لما في القرآن من أمر ونهي، وإشارة وحدود؛ إذ كانت الألسنة قد فسدت، ولم تستطع كل العقول إدراك أسرار القرآن وإبراز نكته التي تضمنت شيئاً من أسرار جماله، ووجوه بيانه، فاضطلع بهذا العبء في تلك المرحلة اللغويون والنحاة[2] ومن هؤلاء الذين تعرضوا لدراسة بلاغة القرآن عرضاً موجزاً:

الفراء والذي يعتبر امتداداً لأبي عبيدة في مجازه إذ أن تفسيره (معاني القرآن) مكمل له من الناحية اللغوية لأنه وإن كان يبحث في التراكيب والإعراب ، فإن المجاز يبحث في الغريب والمجاز وفي كلتا الدراستين تبحث في الأسلوب والتراكيب، ويغلب عليه في دراسته الطابع النحوي وهذا أمر طبيعي إذ انه إمام النحو الكوفي كما أنه لم ينس الأسلوب ، ولكنه بجانب كل ذلك لم ينس الدراسة البيانية، فقد تكلم عن أنواع بديعية في القرآن أثبتها فيه، ودلل

---

(1) بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري – تحقيق حفني محمد شرف – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

(2) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى : 538هـ)، مقدمة شرح المفصل للزمخشري:(8/1)، المحقق: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة : الأولى 1993م.

على وجودها بذكر أمثلتها فيه فتكلم عن الكناية، والتشبيه والمجاز، والاستعارة، وإن لم ينص عليها صراحة، إلا أن تفسيره يظهر معناها، والالتفات.

كما أن الفراء لم يغفل موسيقى القرآن ولا نظمه ولا وزنه وأثر كل ذلك في نفوس سامعيه، وإنه يثير بألفاظه وأسلوبه وجداتهم، ويروع نفوسهم وهذا ما امتاز به عن أبي عبيدة.

ب) تطور التفسير وانتقل من التفسير اللغوي إلى الإيضاح والتأويل على يد ابن جرير الطبري الذي انتقل بدراسة بلاغة القرآن إلى أوسع مما كانت عليه عند الفراء ، ويؤكد الطبري نظرية بلاغة القرآن ويرجعها إلى بديع نظمه وتأليفه الغريب الذي أعجز العرب مع أنه بلغتهم ولفظه بلفظهم، ثم ذكر بعض الأنواع البديعية التي أدت إلى التفاوت بين القرآن الكريم وكلام العرب وما أتى منها في اللسان العربي، كالتقديم والتأخير والاستعارة والإيجاز والإطناب.

ثم جاء الزمخشري وقد تأثر بعبد القاهر الجرجاني ، ولم يضع كتابا خاصاً في بلاغة القرآن، وسار الإمام ابن عطية في تفسيره المسمى (الجامع المحرر) على طريقة الزمخشري في كشافه ولم يذكر أنواع بديعية كما أنه لم يتكلم عنها[1].

(3) الأدباء:

ظهرت في القرن الثاني الهجري طائفة من الأدباء والشعراء أخذوا يتدارسون القرآن وينقدونه، ويقلدون نظمه وأسلوبه ، ولكنهم باءوا بالفشل، ومنوا بالهزيمة، وأيقنوا أن القرآن بلغ الذروة في البلاغة والفصاحة.

1. ولقد ظهرت فكرة بلاغة القرآن وروعة بديعه مع هدفه الاصطلاحي عند الكاتب الكبير والأديب الفاضل علي الطبري

(1) الاتقان للسيوطي:(119/2).

2. أبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين وإن لم يخصص لدراسة بلاغة القرآن تأليفاً خاصاً ، إلا أنه أوجب معرفة البلاغة ودراستها لأنها هي الطريق الموصل إلى معرفة بلاغة القرآن وإعجازه .
3. السكاكي المتوفي سنة 626هـ يرى أن القرآن بليغ بنظمه ، وأسلوبه وفصاحة ألفاظه ومعانيه ، وصحة مبانيه ، يقوده إلى ذلك الكشف عن بديع القرآن وجماله ، ووجود الفنون البلاغية فيه.
4. الآمدي ، وهو من علماء القرن السابع الهجري يتكلم عن بلاغة القرآن ولكنه لم يخصص كتاباً خاصاً بل إنه جمع آراء السابقين ، وتكلم عن نظم القرآن وأسلوبه[1].

كتب خاصة بالدراسات القرآنية:

- ✓ لعل أول كتاب انفرد بدراسة القرآن هو كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفي سنة 209هـ ، تكلم عن أنواع بلاغية فيه ولم يقصد التفصيل والتقسيم لهذه الأنواع التي تعرض لها وسمى بعضها ، فهو لم يقصد الكشف عن بلاغة القرآن أو بديعه ، أو عن جمال أسلوبه ، كما قد يفهم من معنى هذه العبارة بل كان كل همه معرفة الحقيقة والمجاز للألفاظ القرآنية.
- ✓ تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفي سنة 276هـ وقصد" ببلاغة القرآن أو بديعه" صحة التأليف الذي قطع أطماع الكائدين، وعجيب النظم الذي دحض حيل المتكلفين، وأثره في النفس وفوائده التي لا تنقطع. وبين أنه لا يمكن الوصول إلى معرفة بلاغة القرآن إلا بترداد النظر فيه واتساع العلم، وفهم مذاهب العرب.

5. الباقلاني، هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المتوفي سنة 403هـ ، اتسعت دائرة الكلام عن بلاغة القرآن وبديعه في الشكل على يديه حتى أصبح بحق مدرسة تخرج فيها علماء البلاغة ومؤلفو كتب بلاغة القرآن وبديعه من بعد. ولقد شغف ببلاغة القرآن

(1) ذكره الألوسي في مقدمة تفسيره 25/1 طبعة مصر.

فأخذ على نفسه أن يرجعها إلى أسلوبه ونظمه فيرى أن أسلوب القرآن خاص به، لا يضارعه فيه غيره، كما أنه خارج عن الأساليب المعروفة ، فلم يوجد ولن يوجد في العربية أثر يجاريه في بلاغته بحيث يحفظ جمال الأسلوب مع هذا المقدار من الطول، والاشتمال عل الموضوعات المختلفة من الأوامر والنواهي ، والوعد والوعيد، والقصص كما أنه يدلل على جودة نظم القرآن وسمو بلاغته بأخذ كلمة منه، واستعمالها في شعر أو نثر فتصير كالدرة في وسط العقد تسترعي الأنظار، وتدهش العقول وتبهر الألباب[1]

6. عبد القاهر الجرجاني، المتوفي 471هـ ، اتخذت بلاغة القرآن على يديه منهجاً جديداً فلم يكن مقلداً ولا جامعاً لآرائهم، بل كان مفكراً استفاد مما ذكروه، ومبتكر فاخترع ما لم يعرفوه فكان صاحب نظرية النم، وألبسها ثوباً قشيباً، كما أنه وجد أن دولة الألفاظ قد طغت وكثر زعماؤها فنقل البلاغة من حيز الألفاظ المتلائمة إلى المعاني المتناسبة ، وعرضها عرصاً مستفيضاً حتى اعتبر بحق عند كثير من علماء البلاغة أنه أول من ألف فيها ، وقد ألف كتاب" دلائل الإعجاز" ليثبت فيه بلاغة القرآن بعد كلامه عن البلاغة عامة في كتابه " أسرار البلاغة " وإن كان لكتابه الأخير هذا ميزة خاصة وهي عنايته بالبلاغة من الوجهة النفسية من حيث مراعاة وقع الكلام في النفس، ومراعة أحسن الطرق لإفهام النفس الإنسانية ما يريد أن يؤد به المتكلم، والجرجاني في دراسته لبلاغة القرآن لا يرجع هذه البلاغة على معاني الكلمات مفردة ، ولا إلى موازنة كلمات القرآن بكلمات العرب، ولا إلى المقاطع والفواصل، لأنها ليست بأصعب من الوزن والقافية في الشعر، ويذكر أن العرب الذين في مقدورهم ذلك قادرون على المقاطع والفواصل، كما أنه خيل لبعضهم مثل ذلك[2]. كما أنه لم يرجع بلاغة القرآن إلى اشتماله على الاستعارة وما يتعلق بأنواع البديع لأنها لا توجد في كل الآيات، إذا صح ذلك فتكون بعض الآيات الخالية من البديع غير بليغة ولا معجزة، ولا يرجع بلاغته إلى ألفاظه

---

(1) إعجاز القرآن 67

(2) دلائل الإعجاز: 296، وما بعدها.

السهلة أو الغريبة. وبلاغة القرآن تقوم على تلاؤم معانيه في الكلمات المفردة تلاؤماً يساعد على أداء المعنى العام المقصود في جمال وقوة نظم هذه المعاني نظماً مستقيماً متلائماً بفضل علم النحو والبلاغة.

والعمدة في إدراك النظم تلك البلاغة هو الذوق والإحساس الروحاني في كثرة الاطلاع على كلام العرب إذ أن بلاغة القرآن شيء غير محسوس فيختلف في تذوقه ، فكان عبد القاهر بحق قدوة لدارسي بلاغة القرآن.

فائدة: مما تقدم نرى أن بلاغة القرآن وبديعه تطورت من دراسة لغوية إلى بلاغية على يد بعض المفسرين والأدباء مع اقتصارها على بيان الالفاظ وسلامة التركيب ، ثم قصد بها النظم ، والأسلوب والمعاني ، والأثر في النفوس والقلوب كما لم يترك مؤلفو كتب بلاغة القرآن ذكر بعض الأنواع البديعية وبيانها في القرآن والتمثيل لها بآياته ، وكان غرض الدارسين في كل ما سبق الكشف عن إعجاز القرآن. فإذا ما وصلت هذه الدراسة إلى بديع القرآن لابن أبي الأصبع يجده فيما بعد من العلماء يعتمد في دراسته على القول بأن القرآن بليغ بألفاظه وأسلوبه وتراكيبه وأثره ، بل يزيد أن القرآن بليغ بما فيه من التراكيب البديعية التي يعرفها العرب والمتكلمون بالعربية، ويسمون صاحبها بالبليغ أو البديعي، فجمع الأنواع البديعية التي عرفت إلى عصره، وجديده الذي اخترعه في كتابه" تحرير التحبير" ومثل لهذه لا أنواع بآيات القرآن، وخرّج تلك الآيات على الوجوه البلاغية، والأنواع البديعية مبيناً في دراسته لهذه الأنواع سلامة نظم القرآن، وسلاسة أسلوبه وبلاغة معانيه، وفصاحة ألفاظه فلم يصنع أحد من العلماء قبل ابن أبي الأصبع صنيعه في تأليف كتاب تتميز فيه بلاغات القرآن وبديعه، ليسهل من وراء ذلك استخراج إعجازه ، وتقريب طرق إطنابه وإيجازه فكان بذلك متفرداً في هذه الدراسة وإن سبقه غيره إلى تطبيق بعض هذه الأنواع في القرآن ، كأبي الهلال العسكري والرماني إلا أنه لم يكن على سبيل الحصر لهذه الأنواع، أو على سبيل الخاصية لدراسة بلاغة القرآن.

المبحث الثاني: من أسرار البيان والبديع في سورة الشرح.

ولنلقي الضوء على نموذج جيد من ألوان البديع في القرآن الكريم، نجد أن من أقصر الصور وأحلاها بديعًا سورة الشرح، والتي انتظمت في ثمان آيات جمعت كثيرًا من البديع اللفظي، ونحاول في تلك السطور إلقاء الضوء عليها وعلى أسرار بديعها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(8))

أولاً: نزلت هذه السورة الكريمة بعد سورة الضحى؛ وكأنها تكملة لها، فيها ظل العطف الندي، وفيها روح المناجاة للحبيب محمد، وفيها استحضار مظاهر العناية والتكريم، واستعراض مواقع الرعاية، وفيها البشرى باليسر والفرج، وفيها التوجيه إلى سرِّ اليُسْر وحبل الاتصال الوثيق.

وهي توحي بأن هناك ضائقة كانت في روح الرسول – ﷺ– لأمر من أمور هذه الدعوة التي كلفها، ومن العقبات الوعرة في طريقها، ومن الكيد والمكر المضروب حولها... توحي بأن صدره– ﷺ– كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة، وأنه كان يحس العبء فادحًا على كاهله، وأنه كان في حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد... ثم كانت هذه المناجاة الحلوة، وهذا الحديث الودود من المحِبِّ لحبيبه !

ثانيًا: قوله تعالى:(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ). (الشرح: 1)

خطاب للنبي– ﷺ– وقراءة العامة: أَلَمْ نَشْرَحْ، بالسكون. وقرأ أبو جعفر المنصور: أَلَمْ نَشْرَحَ، بفتح الحاء، وخرَّجه ابن عطيَّة وجماعة على أن الأصل: ألم نشرحَنْ، بنون التوكيد الخفيفة، فأبدل من النون ألفاً، ثم حذفها تخفيفًا. وقال غير واحد: لعل أبا جعفر بيَّن الحاء، وأشبعها في مخرجها، فظن السامع أنه فتحها.

وفي(البحر المحيط) لأبي حيان:" أن لهذه القراءة تخريجًا أحسن مما ذكر، وهو أن الفتح على لغة بعض العرب من النصب بـ(لم)، فقد حكى اللحياني في نوادره: أن منهم من ينصب بها، ويجزم بـ(لن) عكس المعروف عند الناس. وعلى ذلك قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد :

في كل ما هَمَّ أمضَى رأيَه قدما *** ولم يشاورَ في الأمر الذي فعلا

وخرَّجها بعضهم على أن الفتح لمجاورة ما بعدها؛ كالكسر في قراءة: الْحَمْدِ للّهِ (الفاتحة: 2)، بالجر، وهو لا يتأتى في بيت عائشة السابق".

ثالثًا: وفي المراد بهذا الشرح- على ما ذكر- قولان

أحدهما: أن المراد به شقُّ صدره الشريف- عليه الصلاة والسلام- روي أن جبريل -عليه السلام - أتاه، وشق صدره، وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علمًا وإيمانًا، ووضعه في صدره. وروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه فسره به، وهو ظاهر صنيع الترمذي؛ إذ أخرج حديث شقِّ الصدر الشريف في تفسير هذه السورة. وحمله على ذلك الشق ضعيف عند المحققين.

وثانيهما: أن المراد به شرح صدره - ﷺ- للإسلام، وهو المرويُّ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -. وقيل هو كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الزكية من الكمالات، وإعلامه برضى الله عنه، وبشارته بما سيحصل للدّين، الذّي جاء به من النصر. وقيل: المراد به تنوير صدره - ﷺ- بالحكمة، وتوسيعه بالمعرفة، لتلقي ما يوحى إليه. قال الله - تعالى - : أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ (الزمر: 22) .

وروي أنهم قالوا: يا رسول الله أينشرح الصدر؟ قال: نعم، قالوا :وما علامة ذلك؟ قال : التجافي عن الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإعداد للموت قبل نزوله .

وتحقيق القول فيه أن صدق الإيمان بالله ووعده ووعيده يوجب للإنسان الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد للموت .

ومنهم من فسر الشرح بانفتاح صدره – عليه الصلاة والسلام –؛ حتى أنه كان يتسع لجميع المهمات، لا يقلق، ولا يضجر، ولا يتغير؛ بل هو في حالتيْ البؤس والفرح منشرح الصدر، مشتغل بأداء ما كلف به. والشرح التوسعة، ومعناه: الإراحة من الهموم. والعرب تسمِّي الغمَّ والهمَّ: ضيقَ صدرٍ؛ كقوله – تعالى :- وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (الحجر:97) .

والأصل في الشرح: فصل أجزاء اللحم بعضِها عن بعض، ومنه: الشريحة من اللحم، ثم شاع استعماله في الكشف والبسط، وإيضاح الغامض والخافي من المعاني. ومنه قولهم: شرَح المشكلَ، أو الغامض من الأمر: فسَّره، وبسطه، وأظهر ما خفي من معانيه. وشرح الكتاب: أوضحه. وكذلك شاع في رضى النفس وسرورها بعد ضيق ألمَّ بها، فقيل: شرح الله صدره بكذا. أي: سرَّه به .ومنه: شرح الله صدره للإسلام، فانشرح. أي: انبسط في رضًا وارتياح للنور الإلهي، والسكينة الروحية. قال تعالى:" فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء". (الأنعام: 125).

رابعًا: والجمهور على القول بأن قوله – تعالى-: أَلَمْ نَشْرَحْ استفهامٌ مرادٌ به التقرير؛ كالاستفهام في قوله تعالى:" أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ". (الأعراف: 172). وقوله :أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (الزمر: 36) .

وسترى أن هذا الاستفهام لا يفيد تقريرًا، وإنما يفيد إثباتًا وتذكيرًا، خلافًا للاستفهام في قوله تعالى:" أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ" (الأعراف: 172)، وقوله:" أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ" (الزمر: 36)، ونحوهما. وبيان ذلك

1. أن الأصل في الكلام الإثبات، ويقابله النفي، تقول: شرح الله صدر فلان، فإذا نفيت ذلك قلت: ما شرح الله صدر فلان، ولم يشرح الله صدره .ويسمَّى كلٌّ منهما خبرًا :الأول: مثبت، والثاني: منفي. وتختصُّ همزة الاستفهام من بين أدوات الاستفهام بدخولها على الخبر المثبت؛ كقولك: أشرحَ الله صدر فلان؟ وعلى الخبر المنفي؛ كقولك :أَمَا شرح الله صدر

فلان؟ وألم يشرحِ الله صدر فلان؟ ويسمَّى كلٌ منهما استخبارًا، أو استفهامًا، والغرض منهما: طلب خبر ما ليس عند المستخبر، أو السائل. وهذا ما يعبَّر عنه بطلب الفهم. ومنهم من فرق بين الاستخبار، والاستفهام بأن ما سبق أولاً، ولم يفهم حق الفهم، كان استخبارًا. فإذا سألت عنه ثانيًا، كان استفهامًا. حكاه ابن فارس في فقه العربية .

2. إذا قلت: ألم يشرح الله صدر فلان؟ أو قلت: أليس زيد قائمًا؟ فإن ذلك يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون الاستفهام على أصله من طلب الفهم .والثاني: أن يكون مرادًا به الإثبات، أو الإيجاب؛ لأن الهمزة للإنكار .والإنكار نفي. ونفي النفي إثبات، أو إيجاب. وحينئذ يكون الغرض منه إما التذكير، أو التوبيخ، أو العتاب، أو التحذير، أو التنبيه، أو التعجب، أو السخرية والتهكم، أو التوقُّع والانتظار، أو نحو ذلك من المعاني، التي يخرج إليها الاستفهام.. ولا يكون تقريرًا إلا بوجود قرينة تدل عليه .

وعلى معنى الإثبات والتذكير يحمل قوله – تعالى :- أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ قال مكي في(مشكل إعراب القرآن) عند إعراب الآية " :الألف نقلت الكلام من النفي، فردته إيجابًا ". والغرض منه: التذكير، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك. وإلى هذا القول ذهب الزمخشري، فقال: " استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه؛ فكأنه قيل :شرحنا لك صدرك، فنبَّه على ذلك، وذكَّر به ."

ولو كان المستفهِم– هنا– غير الله – جل وعلا –، لجاز حمل الاستفهام على أصله من طلب الفهم. وهذا أحد الأدلة، التي تحول بينه، وبين أن يكون استفهامًا تقريريًّا .

ومما يحمل على الإثبات مع التنبيه والتعجب قوله – تعالى :- أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ)البقرة(243 :، أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ)الفرقان: 45(، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (الفيل: 1). فهذا إثبات مصحوب بالتنبيه والتعجب، والمعنى في ذلك كله: انظر بفكرك في هذه الأمور، وتنبَّه واعجب.

وقوله تعالى:" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ" (الحديد: 16). إثبات مصحوب بالعتاب. قال ابن مسعود – رضي الله عنه –: " ما كان بين إسلامنا، وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية، إلا أربع سنين ."

وقوله تعالى:" أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ. ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (المرسلات: 16-18) إثبات مصحوب بالتحذير للآخرين، وتخويفهم بإهلاك الأولين منهم بسبب كفرهم .

ومما يحمل على طلب الفهم، والإثبات مع الافتخار؛ قوله – تعالى- حكاية عن فرعون لعنه الله:" أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ" (الزخرف: 51). فإنه يحتمل أن يكون استفهامًا حقيقيًّا بأن يكون لا يعلم، ويحتمل أن يكون عالمًا؛ ولكنه أورد سؤاله على سبيل الإثبات للافتخار.

ومما يحمل على طلب الفهم، والإثبات مع الإنكار قوله تعالى حكاية عن لوط – عليه السلام-:" أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ" (هود: 78) أي: رجل واحد يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه؛ فإنه يحتمل أن يكون استفهامًا حقيقيًّا، ويحتمل أن يكون إثباتًا، الغرض منه الإنكار.

3. إذا قلت: أليس زيد بقائم، كان قولك هذا إثباتًا، الغرض منه التقرير، ولا يجوز أن يصرف إلى معنى آخر من المعاني السابقة. ومنه قوله تعالى:" أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى" (الأعراف: 172)، وقوله تعالى:" أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا" (الأحقاف34)، وقوله تعالى:" أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى" (القيامة: 40)، وقوله تعالى:" أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" (التين: 8). وفي الحديث:" من قرأ والتين إلى آخرها، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين".

فمعنى الاستفهام في هذه الآيات ونحوها على الإثبات، والغرض منه التقرير. أما الإثبات فمستفاد من دخول الهمزة على النفي. وأما التقرير فمستفاد من دخول الباء على خبر المنفي، لا من دخول الهمزة على أداة النفي، خلافًا للمشهور. فالباء- هنا- هي القرينة الدالة على أن المراد من هذا الكلام: التقرير؛ ولهذا لا يجوز أن يحمل الكلام مع هذه الباء

على طلب الفهم؛ كما جاز ذلك في الأمثلة المذكورة في الفقرة الثانية، كما لا يجوز في الأمثلة السابقة إلا على إسقاط الباء. وهذا هو سر دخول هذه الباء على خبر المنفي، وهو من الأسرار الدقيقة، التي لا يكاد يفطَن إليها في البيان القرآني المعجز .

4. إذا كان العلماء لا يفرقون بين قوله تعالى:" أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ". (الشرح: 1)، ونحوه، وقوله تعالى:" أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى" (الأعراف: 172)، ونحوه، فلأن معنى التقرير – عندهم– هو الإثبات. ولا دليل لهم على ذلك سوى أن كلاًّ منهما يجاب بـ(بلى) في الإيجاب؛ كما في آيتي الشرح والأعراف السابقتين.

وقد استدل الزركشي على ذلك بقوله: والذي يقرر عندك أن معنى التقرير: الإثبات قول ابن السراج: فإذا أدخلت على(ليس) ألف الاستفهام، كانت تقريرًا، ودخلها معنى الإيجاب، فلم يحسن معها أحد؛ لأن أحدًا إنما يجوز مع حقيقة النفي. لا تقول: أليس أحد في الدار؛ لأن المعنى يؤول إلى قولك: أحد في الدار. وأحد لا تستعمل في الواجب.

والإيجاب هو الإثبات، وبينه، وبين التقرير فرق لا بدَّ من مراعاته، والوقوف عنده، ويتلخص في أن الإثبات يكون جوابًا للإنكار، والتقرير يكون جوابًا للجحد .

والجحد– كما جاء في معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري –أخصُّ من الإنكار؛ وذلك أن الجحد إنكار الشيء الظاهر. والشاهد قوله – تعالى:" الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ". (الأعراف51)؛ فجعل الجحد مما تدل عليه الآيات. ولا يكون ذلك إلا ظاهرًا. وقال تعالى:" يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ". (النحل: 83)، فجعل الإنكار للنعمة؛ لأن النعمة قد تكون خافية.

ويجوز أن يقال: الجحد هو إنكار الشيء مع العلم به. والشاهد قوله:" وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً". (النمل: 14)، فجعل الجحد مع اليقين. والإنكار يكون مع العلم، وغير العلم.

فإذا ثبت ذلك؛ فإنه لا يجوز حمل الاستفهام في قوله تعالى:" أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" (الشرح: 1) ونحوه على استفهام التقرير؛ لأن التقرير هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده، فجحَده بعد أن علم به. وحاشا للنبي – ﷺ– أن يكون جاحدًا .

5. وقد كان عدم تفريقهم بين الإثبات، والتقرير– سببًا في اختلافهم في معنى الاستفهام الداخل على النفي في كثير من آي القرآن الكريم. ومن الآيات التي اختلفوا فيها قوله تعالى:" أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ"(العنكبوت: 68، والزمر: 32). قال الزمخشري:" أليس: تقرير لثوائهم في جهنم، وحقيقته: أن الهمزة همزة إنكار، دخلت على النفي، فرجع إلى معنى التقرير".

وقال أبو السعود، وتبعه الألوسي:" تقرير لثوائهم فيها؛ كقول من قال: ألستم خير من ركب المطايا. أي: ألا يستوجبون الثواء فيها، وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء على الله – تعالى– والتكذيب بالحق الصريح، أو إنكار، واستبعاد لاجترائهم على ما ذكر من الافتراء والتكذيب، مع علمهم بحال الكفرة. أي: ألم يعلموا أن في جهنم مثوى للكافرين، حتى اجترأوا هذه الجراءة".

وكون الاستفهام– هنا– للتقرير يتناقض مع كونه للإنكار. والجمهور على أنه للتقرير . والتقرير– كما تقدم– هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده. فهل كان الكافرون مقرين ومعترفين بأن مستقرَّهم النار؟ فإذا كان الأمر كذلك، فالمراد من هذا الاستفهام التقرير؛ وإلا فهو متضمِّن لمعنى الوعيد والتحقير. وسمَّاه السيوطي في (الإتقان) بالاكتفاء، ومثل له بقوله تعالى:" أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ". (الزمر: 60). أي أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموئلا لهم، فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق؟

ومن ذلك قوله – تعالى :– أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة: 106). فقد ذهب الزمخشري إلى أن الاستفهام فيه للتقرير. وقال الزركشي: " الكلام مع التقرير موجب، وجعل الزمخشري منه :أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)البقرة .(106 :وقيل: أراد

التقرير بما بعد النفي، لا التقرير بالنفي. والأوْلى أن يجعل على الإنكار. أي: ألم تعلم أيها المنكر للنسخ ''. وذهب الفخر الرازي إلى أن المراد بهذا الاستفهام: التنبيه. وذهب ابن عطية إلى أن ظاهره الاستفهام المحض. ورده أبو حيان قائلاً: '' بل هذا استفهام معناه :التقرير .''

وأقرب الأقوال إلى الصواب هو قول الفخر الرازي، ونصَّه الآتي:" أما قوله:" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"؛ فتنبيه للنبي – ﷺ– وغيره على قدرته –تعالى– على تصريف المكلف تحت مشيئته وحكمه وحكمته، وأنه لا دافع لما أراد، ولا مانع لما اختار".

ومما يبعد أن يكون الاستفهام في هذه الآيات، ونحوها للتقرير أنه يجوز حمله في كل منها على حقيقته من طلب الفهم، وذلك لا يجوز في استفهام التقرير.

خامسًا: وقال تعالى:" أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" بصيغة الجمع، ولم يقل: ألم أشرح لك صدرك، بصيغة المفرد.. والجواب– كما قال الفخر الرازي–:" إما أن يحمل على نون التعظيم، فيكون المعنى: أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة، لا تصل العقول إلى كنه جلالتها. وإما أن يحمل على نون الجميع، فيكون المعنى؛ كأنه –تعالى– يقول: لم أشرحه وحدي؛ بل أعملت فيه ملائكتي، فكنت ترى الملائكة حواليك وبين يديك حتى يقوى قلبك، فأديت الرسالة، وأنت قوي القلب، ولحقتهم هيبة، فلم يجيبوا لك جواباً. فلو كنت ضيق القلب، لضحكوا منك، فسبحان من جعل قوة قلبك جبناً فيهم، وانشراح صدرك ضيقاً فيهم".

وقال تعالى:" أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ"، وكان يمكن أن يقال: ألم نشرح صدرك، بدون لَكَ؛ ولكن جيء به زيادة بين فعل الشرح، ومفعوله لفائدتين:

الفائدة الأولى: هي سلوك طريقة الإبهام، ثم الإيضاح، للتشويق .فإنه –سبحانه– لما ذكر فعل: نَشْرَحْ ، عَلم السامع أن ثَمَّ مشروحاً .فلما قال: لَكَ، قويَ الإبهام، فازداد التشويق. فلما قال: صَدْرَكَ، أوضح ما كان قد عُلِم في ذهن السامع مبهمًا؛ فتمكن في ذهنه كمال تمكن. وكذلك قوله تعالى:" وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ"،" وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ". وهذا من الإطناب

البليغ؛ حيث إن مفهوم المخالفة يؤكد الآخر ولا شك أن التنوع في الأسلوب بإلقاء المعني في صورة بها من الإيحاء وظلال اللفظ ما يجعل الزهن متيقظًا والعقل منتبهًا.

قال علماء البيان: إذا أردت أن تبهم، ثم توضح، فإنك تطنب. وفائدته: إما رؤية المعنى في صورتين مختلفتين: الإبهام والإيضاح. أو لتمكن المعنى في النفس تمكنا زائدًا، لوقوعه بعد الطلب؛ فإنه أعز من المنساق بلا تعب. أو لتكمل لذة العلم به؛ فإن الشيء إذا علم من وجهٍ مَّا، تشوَّقت النفس للعلم به من باقي وجوهه وتألمت، فإذا حصل العلم من بقية الوجوه، كانت لذته أشد من علمه من جميع وجوهه دفعة واحدة.

ومن الأمثلة على ذلك:" رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي". (طه: 25)؛ فإن اشْرَحْ يفيد طلب شرح شيء مَّا، و صَدْرِي يفيد تفسيره وبيانه. وكذلك:" وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي". (طه: 26)، والمقام يقتضي التأكيد، للإرسال المؤذن بتلقي الشدائد. وكذلك:" أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ"؛ فإن المقام يقتضي التأكيد؛ لأنه مقام امتنان وتفخيم.

والفائدة الثانية: أن في زيادة لَكَ تنبيه على أن منافع الرسالة عائدة إلى النبي – ﷺ– كأنه قيل: إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلنا. وفي ذلك تكريمٌ للنبي – ﷺ– بأن الله –تعالى– قد فعل ذلك لأجله.

ومثله في ذلك قول موسى–عليه السلام–:" رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي". (طه: 25)؛ فكأن في ذلك اعترافًا من موسى– عليه السلام – بأن منفعة الشرح عائدة إليه؛ لأن الله –تعالى– لا ينتفع بإرسال الرسل، ولا يستعين بشرح صدورهم، على خلاف ملوك الدنيا.

وقال تعالى:" أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ"، ولم يقل: ألم نشرح لك قلبك، مع أنه المراد هنا. ومثل ذلك قوله تعالى:" يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ". (الناس: 5)، وكان الظاهر يقتضي أن يقال: في قلوب الناس؛ ولكن عدل عنه إلى الصدر؛ لأن الصدر– كما قال ابن قيِّم الجوزية–:" هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود".

ومن فهم هذا، فهم قوله تعالى:" وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ".(آل عمران: 154)؛ فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته، فيلقي ما يريد إلقاءه في القلب، فهو موسوس في الصدر.

ومذهب الجمهور أن الصدر هو محل القرآن والعلم. ودليلهم على ذلك قوله تعالى:" بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ".(العنكبوت: 49).

وقال محمد بن علي الترمذي:" القلب محل العقل والمعرفة، وهو الذي يقصده الشيطان، فالشيطان يجيء إلى الصدر، الذي هو حصن القلب، فإذا وجد مسلكًا نزل فيه هو وجنده، وبث فيه الهموم والغموم، فيضيق القلب حينئذ، ولا يجد للطاعة لذة، ولا للإسلام حلاوة".

سادسًا: وقوله تعالى:" وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ". (الشرح: 2-3). قراءة العامة، وقرأ أنس: حططنا وحللنا بدلاً من قوله: وَضَعْنَا. وقرأ ابن مسعود: عنك وقرك، بدلاً من قوله: وِزْرَكَ.

والوضع- في اللغة- هو إلقاء الحمل على الأرض، وهو أعمُّ من الحطِّ. والوزر يقال للحمل، ويقال لثقل الذنب. وفي وضعه عنه -عليه الصلاة والسلام- كناية عن عصمته من الذنوب، وتطهيره من الأدناس. وعبَّر عن ذلك بالوضع على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك .

وقيل: وضع الله - تعالى -عنه عبئه، الذي أثقل ظهره، حتى كاد يحطمه من ثقله. وضعَه عنه بشرح صدره له، فخف وهان. ووضعه بتوفيقه وتيسيره للدعوة ومداخل القلوب، وبالوحي الذي يكشف له عن الحقيقة، ويعينه على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين .

وقوله تعالى: وَضَعْنَا معطوف بالواو على قوله: أَلَمْ نَشْرَحْ ، وجاز ذلك؛ لأن الأول في معنى الإثبات، فحمل الثاني على معنى الأول، ولو كان محمولاً على لفظه، لوجب أن يقال: ونضع عنك وزرك. ومثله في ذلك قوله تعالى:" وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ.

وقوله تعالى:" الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ" صفة للوزر. قال علماء اللغة: الأصل فيه: أن الظهر إذا أثقله الحمل، سُمِع له نقيض. أي: صوت خفيٌّ. والمراد بهذا النقْض: صوت الأضلاع. وهو مثل لما كان يثقل على رسول الله – ﷺ– من أوزاره.

قال النحاس:" فإن قال قائل: كيف وصف هذا الوزر بالثقل، وهو مغفور له، غير مطالب به؟ فالجواب: أن سبيل الأنبياء– صلوات الله عليهم– والصالحين، إذا ما ذكروا ذنوبهم، أن يشتدَّ غمُّهم وبكاؤهم؛ فلهذا وصف ذنوبهم بالثقل".

سابعًا: قوله تعالى:" وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ"، معناه: أن الله –جل وعلا– رفع له ذكره في الملأ الأعلى، قبل أن يرفعه له في الأرض، حين جعل اسمه –عليه الصلاة والسلام– مقرونًا باسمه –جل وعلا– ورفع له ذكره في اللوح المحفوظ، حين قدر الله –سبحانه– أن تمر القرون، وتكر الأجيال، وملايين الشفاه في كل مكان، تهتف بهذا الاسم الكريم، مع الصلاة والتسليم. ورفع له ذكره، حين ربطه بهذا المنهج الإلهي الرفيع. وكان مجردُ الاختيار لهذا الأمر رفعةَ ذكر، لم ينلها أحد من قبل، ولا من بعد في هذا الوجود. وليس بعد هذا الرفع رفعٌ، وليس وراء هذه المنزلة منزلة إنه المقام، الذي تفرد به – ﷺ– دون سائر العالمين.

وروي عن مجاهد وقتادة ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وغيرهم أنهم قالوا في ذلك:" لا أُذكَرُ إلا ذُكِرتَ معي". وفيه حديث مرفوع، أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن أبي حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– قال:" أتاني جبريل– عليه السلام– ، فقال: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله –تعالى– أعلم! قال: إذا ذكرتُ، ذكرتَ معي".

ولا يخفى ما في هذا الرفع لذكره –عليه الصلاة والسلام– من لطف، بعد ذلك الوضع لأعبائه عنه. هذا الرفع، الذي تهون معه كل مشقة وتعب وعناء. وليس بعد هذا التكريم تكريم، وليس بعد هذا العطاء عطاء.

ثامنًا: ومع هذا كله فإن الله -تعالى- يتلطف مع حبيبه المختار، ويسرِّي عنه، ويؤنسه، ويطمئنه، ويطلعه على اليسر، الذي لا يفارقه، فيقول:" فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا". (الشرح:5-6).

والعسر: المشقة في تحصيل المرغوب، والعمل المقصود. وتعريفه للعهد. واليسر ضد العسر، وهو: سهولة تحصيل المرغوب، وعدم التعب فيه، وتنكيره في الموضعين للتفخيم والتعظيم؛ كأنه قيل: إن مع العسر يسرًا عظيمًا! والكلام وَعْدٌ له - ﷺ- مَسوقٌ للتسلية، والتنفيس.

وقوله تعالى في الحملة الثانية:" إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا". يحتمل وجهين من التأويل:

الوجه الأول: أنه تكرير للجملة السابقة؛ لتأكيد معناها، وتقريره في النفوس، وتمكينه في القلوب. وهو نظير قولك: إن مع الفارس رمحًا، إن مع الفارس رمحًا، وهو ظاهر في وحدة الفارس والرمح؛ وذلك للإطناب والمبالغة. فعليه يكون اليسر فيها عين اليسر في الأولى، والمراد به ما تيسر من الفتوح في أيام رسول الله - ﷺ- أو يسر الدنيا مطلقًا.

والوجه الثاني: أنه ليس بتكرير للأول؛ وإنما هو تأسيس، ويكون الحاصل من الجملتين: أن مع كل عسر يسرين عظيمين. والظاهر أن المراد بذينك اليسرين: يسر دنيوي، ويسر أخروي. وفي حديث ابن مسعود أنه لما قرأ:" فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"، قال: لن يغلب عسر يسرين.. قيل: معناه: أن العسر بين يسرين؛ إما فرج عاجل في الدنيا، وإما ثواب آجل في الآخرة.

وقال الكرماني في(أسرار التكرار في القرآن):" قوله –تعالى-:" فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" ليس بتكرار؛ لأن المعنى: إن مع العسر، الذي أنت فيه من مقاساة الكفار يسرًا في العاجل، وإن مع العسر، الذي أنت فيه من الكفار يسرًا في الآجل. فالعسر واحد واليسر اثنان".

وعلى هذا يكون قوله تعالى:" إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" وعدًا آخر مستأنفًا، غير الوعد الأول. قال الألوسي:" واحتمال الاستئناف هو الراجح، لما علم من فضل التأسيس على التأكيد.

كيف، وكلام الله –تعالى– محمول على أبلغ الاحتمالين، وأوفاهما، والمقام –كما تقدم– مقام التسلية والتنفيس.

وكان الظاهر على ما سمعت من المراد باليسر تعريفه، إلا أنه أوثر التنكير للتفخيم..وقد يقال: إن فائدته أظهر في التأسيس؛ لأن النكرة المعادة، ظاهرها التغاير، والإشعار بالفرق بين العسر واليسر".

والفرق بين التأسيس، والتكرير: أن التكرير يكون بإيراد المعنى مردداً بلفظ واحد؛ ومنه ما يأتي لفائدة، ومنه ما يأتي لغير فائدة. فأما الذي يأتي لفائدة فإنه جزء من الإطناب، والغرض منه التأكيد والتأكيد هو تقرير إرادة معنى الأول، وعدم التجوُّز. أما التأسيس فيفيد معنى آخر، لم يكن حاصلاً قبل، وهو خير من التأكيد؛ لأن حمل الكلام على الإفادة خير من حمله الإعادة. ولهذا قال الزمخشري في قوله تعالى:" كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ". (التكاثر: 3–4): إن الثانية تأسيس، لا تأكيد؛ لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء، فقال: وفي ثُمَّ تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول.

وهذا القول هو اختيار الحسين بن يحيى الجرجاني، ونصُّ قوله في ذلك:" والصحيح أن يقال: إن الله بعث نبيه محمدًا –– مقلاً مخفًّا، فعيَّره المشركون بفقره، حتى قالوا له: نجمع لك مالاً .فاغتمَّ، وظن أنهم كذبوه لفقره، فعزَّاه الله، وعدَّد نعمه عليه، ووعده الغنى بقوله:" فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا". أي: لا يحزنك ما عيَّروك به من الفقر؛ فإن مع ذلك العسر يسرًا عاجلاً. أي: في الدنيا. فأنجز له ما وعده، فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز واليمن، ووسَّع ذاتَ يده حتى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ويعدُّ لأهله قوت سنة. فهذا الفضل كله من أمر الدنيا، وإن كان خاصًّا بالنبي – ﷺ– ، فقد يدخل فيه بعض أمته، إن شاء الله تعالى.

ثم ابتدأ فضلاً آخر من الآخرة، وفيه تأسية وتعزية له – ﷺ– فقال مبتدئًا:" إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"؛ فهو شيء آخر. والدليل على ابتدائه تعرِّيه من فاء، أو واو، أو غيرها من حروف

النسق، التي تدل على العطف. فهذا وعد عام لجميع المؤمنين، لا يخرج أحد منه. أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرًا في الآخرة، لا محالة.

وربما اجتمع يسر الدنيا، ويسر الآخرة. والذي في الخبر:" لن يغلب عسر يسرين". يعني: العسر الواحد لن يغلبهما، وإنما يغلب أحدهما، إن غلب، وهو يسر الدنيا. فأما يسر الآخرة فكائن لا محالة، ولن يغلبه شيء. أو يقال: إن مع العسر، وهو إخراج أهل مكة النبي- ﷺ- من مكة يسرًا، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل مع عز وشرف".

وظاهر المعية في قوله تعالى:" مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"، يقتضي أن يكون اليسر مصاحبًا للعسر ومقارنًا له؛ لأن مَعَ ظرف يدل على المصاحبة. ولما كان اليسر لا يجتمع مع العسر؛ لأنهما ضدان، أجيب عن ذلك بأن مَعَ- هنا- مستعملة في غير معناها الحقيقي، وأنها مستعارة لقرب حصول اليسر عقب حلول العسر، أو ظهور بوادره. وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية، وبين قوله تعالى:" سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً".(الطلاق: 7).

ثم إنه يبعد إرادة المعية الحقيقية ما أخرجه البزار وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في الشعب عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله - ﷺ- جالسًا، وحياله حجر، فقال- عليه الصلاة والسلام-:" لو جاء العسر فدخل هذا الحجر، لجاء اليسر حتى يدخل عليه، فيخرجه". فأنزل الله تعالى:" فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"...إلخ . ولفظ الطبراني: وتلا رسول الله -ﷺ-:" فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا".

تاسعًا: ثم يجيء التوجيه الكريم من الله -جل وعلا- لمواقع التيسير، وأسباب الانشراح، ومستودع الري والزاد في الطريق الشاق الطويل، فيقول سبحانه وتعالى:" فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ". (الشرح: 7-8).

أي: إذا فرغت من عبادة -كتبليغ الوحي- فاتعب في عبادة أخرى، شكرًا لما عددنا عليك من النعم السالفة، ووعدناك من الآلاء الآنفة؛ وكأنه -عز وجل- لما عدَّد على نبيه وحبيبه محمد -ﷺ- ما عدَّد، ووعده بما وعد، وحقق له ما وعد، بعثه على الشكر والاجتهاد في

العبادة، وأن لا يخلي وقتًا من أوقاته منها؛ ولهذا كان -عليه الصلاة والسلام- إذا ما فرغ من عبادة أتبعها بأخرى.

والفراغ -في اللغة- خلاف الشُّغل. يقال: فرغ من عمله فراغًا، فهو فارغ. قال تعالى:" سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ". (الرحمن: 31)، وفسِّر بقولهم: سنقصد لكم أيها الثقلان. وقوله تعالى:" وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً". (القصص: 10). قيل في تفسيره: خاليًا؛ وكأنما فرغ من لبِّها، لِمَا تداخلها من الخوف. وقيل: فارغًا من ذكره. أي: أنسيناها ذكره، حتى سكنت، واحتملت أن تلقيه في اليم. وقيل: خاليًا إلا من ذكره؛ لأنه قال:" إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا".(القصص: 10) .

وظاهر قوله تعالى:" فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ". يفيد أنه -عليه الصلاة والسلام- كان في أعمال، لم ينته منها، ولكن السياق لم يذكر لنا شيئًا عن تلك الأعمال، يكون متعلَّقًا للفعل فَرَغْتَ. وعدم ذكره يقتضي أنه لازم أعمال، يعلمها الرسول - ﷺ- كما أن مساق السورة في تيسير مصاعب الدعوة، وتذليل ما يحف بها من مكاره.

وعليه يكون المعنى: إذا أتممت عملاً من مهام الأعمال، فأقبل على عمل آخر؛ بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة. ومن هنا قال رسول الله - ﷺ- عند رجوعه من إحدى غزواته:" رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر".

وبهذا يتبين أن المقصود بالأمر هو قوله تعالى: فَانْصَبْ. أما قوله تعالى: فَإِذَا فَرَغْتَ ْ؛فتمهيد وإفادة لإيلاءِ العمل بعمل آخر في تقرير الدين ونفع الأمة. وهذا من صيغ الدلالة على تعاقب الأعمال. ومثله قول القائل: ما تأتيني من فلان صلة إلا أعقبَتْها أخرى. ولهذا قدِّم قوله تعالى: فَرَغْتَ. على قوله: فَانْصَبْ. وجيء بالفاء الرابطة؛ لتدل على أن ما بعدها واجب الوقوع عقب وقوع الشرط مباشرة .وعليه يكون قوله تعالى: فَانْصَبْ أمرًا بإحداث الفعل فورًا بعد حدوث الشرط من دون أي تأخير.

ثم أمره -سبحانه وتعالى- بأن يرغب إلى ربه وحده. أي: بأن يحرص بسؤاله وحده، ولا يسأل غيره تعالى؛ فإنه القادر على الإسعاف، لا غيره -عز وجل- وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ.

وقوله تعالى: فَارْغَبْ. هو من الرَّغْبَة، والرَّغبة هي: السَّعة في الإرادة. قال -تعالى- عن إبراهيم عليه السلام:" وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً". (الأنبياء: 90). أي: رغبًا في رحمتنا، ورهبًا من عذابنا.

فإذا قيل: رغب فيه، وإليه، اقتضي الحرص عليه. قال تعالى:" إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ". (التوبة: 59). وعلى هذا يحمل قوله -تعالى – هنا: وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ، تشبيهًا بسير السائر إلى من عنده حاجته؛ كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام:" إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ". (الصافات: 99) .

وإذا قيل: رغب عنه، اقتضى صرْف الرّغبة عنه، والزهد فيه؛ نحو قوله تعالى:" أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ". (مريم: 46)، وقوله تعالى:" وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ". (النساء: 127). قالت عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها-: وترغبون عن أن تنكحوهن.

وقدم قوله تعالى: إِلَى رَبِّكَ. على قوله: فَارْغَبْ؛ لإفادة معنى الاختصاص. أي: إليه، لا إلى غيره تكون رغبتك؛ فإن صفة الرسالة أعظم صفات الخلق، فلا يليق بصاحبها أن يرغب إلى غير الله –تعالى- وتقديمه هو ممَّا قُدِّم فيه المتعلَّق على المتعلَّق به، أو المعمول على العامل على حدِّ تعبير النحاة. ولم تمنع الفاء من هذا التقديم، خلافًا للمشهور من أقوالهم.

ولهذا نجدهم يقدرون عاملاً محذوفًا لـ" ارْغَبْ"، ويجعلون حذفه للتعميم. وعلى قولهم يكون التقدير: وارغب إلى ربك، فارغب إليه. أو فارغبه. والذي ألجأهم إلى هذا التكلف في التأويل ما اصطلحوا عليه من أن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها، والذي عليه أهل التحقيق خلاف ذلك. والله تعالى أعلم بأسرار بيانه"[1].

(1) شبكة النور – المختار الإسلامي – http://islamselect.net/mat/28562. تاريخ التصفح 3/ 3/ 2016م.

خاتمة

أهم النتائج:

أولًا: الإيجاز في القرآن له سمات جميلة في القرآن، وتتضح تلك السمات من خلال النقاط التالية:

1. الإيجاز بالقصر موجود في آيات القرآن، والمتتبع لآيات كتاب الله- تعالى- يجدها مليئة بأصناف هذا الإيجاز البديع المعجز الذي حكى أنباء كثيرة في ألفاظ قليلة، من كتاب الله تُفهم بمرور السنين والأحداث.
2. من مواطن الإيجاز بالقصر- من وجهة نظري المتواضعة- الاحتمال، وهو أن يحتمل اللفظ معانيَ كثيرة مختلفة أو متفقة ولا مانع من أي من هذه الاحتمالات، فتحمل ويراد بها جميعها، ولم أر فيما وقع تحت بصري من أشار إلى هذا الموطن، وأرى أنه من أدق وجوه الإيجاز بالقصر في كتاب الله.

الإيجاز بالحذف في آيات القرآن كثير ومنه:

(1) أ- الإيجاز بحذف جزء جملة:

1. من إيجاز بحذف حرف: سواء أكان هذا الحرف جاراً أو حرف نفي، أو حرف نداء، وهو كثير في آيات القرآن في نداء" رب" في الدعاء وطبيعة آيات القرآن التي تحتاج بشدة إلى نداء الخالق تستدعي هذا النداء وحذف أداته لكثرة الاستعمال.
2. ومن إيجاز بحذف كلمة: من حذف المبتدأ أو حذف الفعل، وهو كثير مع" إذ"، وحذف المفعول، وحذف متعلق الفعل، وحذف المضاف، وهو أكثر مواطن الحذف في آيات القرآن وأزعم أن حذف المضاف به ميزة خاصة سأذكرها لاحقاً، وحذف الموصوف، وحذف الصفة.

ب- والإيجاز بحذف جملة: ووجد منه الإيجاز بحذف جواب الشرط.

جـ- الإيجاز بحذف جمل كثيرة، وتفصيلات ليس في ذكرها فائدة، أو معلومة من خلال سياق الكلام.

(2) الغرض الأساسي لهذا الحذف الإيجاز والاختصار، وقد يتداخل معه إفادة العموم.

(3) كل إيجاز بالحذف وجد ما يدل في الكلام على المحذوف.

(4) الإيجاز بحذف المضاف يدل على أن المقصود هو المضاف إليه ففيه إسقاط على المقصود، وهذا المقصود له دلالتان: دلالة على نفسه، ودلالة على المحذوف، فهو من أجل أنواع الإيجاز والإعجاز، بحذف جزء جملة.

وفي مجال البحث في الإيجاز يتوجب أن يتنبه الباحثون إلى ما يلي:

- ضرورة البحث عن أغراض جديدة للحذف غير الأغراض التقليدية التي رست سابقاً.
- ضرورة البحث عن أوجه الاختلاف في دراسة الحذف بين البلاغيين والنحويين.
- البحث في سياقات الكلام لدراسة الأغراض النفسية للحذف.

ولا أدعي أن هذا الموضوع جديد لم يطرق من قبل وإنما كتب فيه الكثير، ولكني أردت أن أبين ولو بلمحة جمالية واحدة في كتاب الله ربما تكون سبباً في تخفيف ولو جزء بسيط من عذاب الله الذي قال فيه:" وإن منكم إلا واردها". اللهم أجرنا من خزي الدنيا وعذاب يوم القيامة.

ثانيًا: الأمثلة القرآنية المشتملة على ألوان البديع، أكثر من أن يتسع لها هذا المقام، فهي كثيرة ومبثوثة في أساليب القرآن وآياته، وكلها تشهد بأن حسنها ذاتي داخل في صميم البلاغة، ودال على عظمة القرآن وإعجازه.

والبلاغة القرآنية، يتساوى فيها ألوان البديع وفنون المعاني والبيان، فبلاغة القرآن المعجزة، تحيط بكل هذه الألوان والفنون، وذلك في قوله عن ألوان البديع، في تفسير الزمخشري للبلاغة القرآنية، وعرض الزمخشري للمشاكلة، والطباق، والجناس، والمزاوجة، والتقسيم، وغير ذلك مما جعله المتأخرون من علم البديع، كما عرض لفنون البيان والمعاني، يقول الدكتور محمد أبو موسى: وقد نظرت في كتابه كله، ووقفت عند كل لون ذكره من هذه الألوان، فوجدته يشير إلى بلاغته، وإلى أنها فن من كلامه البديع وطراز عجيب، وأنها من مستغرب فنون البلاغ، ثم يشيد ببلاغة القرآن المعجزة التي تحيط بكل هذه الفنون، وتوجد فيها على أحسن صورة وأقوم منهج، يقول الزمخشري، في المشاكلة:" ولله در التنزيل، وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها، لا تكاد تستغرب منه فنًّا إلَّا عثرت عليه فيه، على أقوم مناهجه وأسد مدارجه".

ويقول في نوع من أنواع اللف:" إنه لطيف المسلك، لا يكاد يهتدي إلى تبيينه إلا النَّقَّاب المحدث من علماء البيان، ويذكر إعجاب شريح القاضي، ببلاغة الشاهد الذي راعى المشاكلة، حين قال له شريح: إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعده عني، فقال له شريح: لله بلادك، وقَبِل شهادته، ثم هو يبسط هذه الألوان ويحللها، ويشرح أسلوبها وما تنطوي عليه من أسرار ونكات، وهذه طريقته في دراسة فنون البيان والمعاني

أن منزلة البديع في مجال الدراسات الإسلامية، والتعرف إلى مرادات الله، وأسرار القرآن ودلائل إعجازه، لا تقل شأنًا عن منزلة أخويها المعاني والبيان، بل وعن غيرها من سائر العلوم العربية والإسلامية، وأن القول بغير ذلك، أو بجعله تابعًا لأخويه ذيلًا لهما، أو بجعل حسنه عرضًا لا ذاتًا، كلام ينقصه الدقة ولا يتفق مع النظرة العلمية للأمور، والأدلة كثيرة وواضحة.

وقد صرح العلامة صفي الدين الحلي: بأن محاسن البديع يعرف بها كما يعرف بغيرها من ألوان المعاني والبيان ومسائلهما، وجه إعجاز القرآن الكريم، وذلك في قوله: "لا سبيل إلى فهم القرآن الكريم ومعرفة حقائقه، إلا بمعرفة علم البلاغة وتوابعها من محاسن البديع، اللتين بهما يُعرف وجه إعجاز القرآن وصحة نبوة محمد – ﷺ– بالدليل والبرهان".

والباب مفتوح أمام كل من أراد الاستزادة والتبحر لينهل من معين القرآن الكريم.. فاللهم نسألك باسمك الأعظم الأجل الأكرم أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا وسابقنا ودليلنا إلى جناتك جنات النعيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. أشرف حسن محمد حسن الدبسي

شاه علم- سلانجور- ماليزيا

1437هـ/ 2016م

أهم المراجع والمصادر

1. ابن القيم، في الفوائد المشوق لعلوم القرآن الكريم، القاهرة، بدون تأريخ.
2. ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، طبعة دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بدون تأريخ.
3. ابن عبد الوهاب، محمد بن عبد الوهاب مختصر زاد المعاد، طبعة دار الريان الطبعة الثانية سنة 1م407هـ-1987م القاهرة.
4. ابن هشام، في كتابه المغني، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة 1985م.
5. أبو موسى محمد أبو موسى خصائص التراكيب، طبعة مكتبة وهبة، مصر.
6. أبو موسى، محمد محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، طبعة مكتبة وهبة، مصر.
7. أبي السعود، في تفسيره إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، طبعة دار الفكر.
8. أبي حيان، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، في البحر المحيط، طبعة دار الفكر بيروت سنة 1413هـ. طبعة دار الفكر بيروت لبنان سنة 1413 هـ، 1992 م.
9. الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني" ت 502 هـ"، المفردات في غريب القرآن، طبعة دار الخلق للتراث بمصر، بدون تأريخ.
10. بدوي، د/ أحمد بدوي، في كتابه: من بلاغة القرآن، دار المعرف بمصر، 2006.
11. الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، في: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، طبعة دار الريان للتراث بالقاهرة، ودار الكتب العلمية بيروت، الثالثة سنة 1407 هـ، 1987 م. رتبه وضبطه وصححه/مصطفى حسين أحمد.

12. السبكي صاحب كتاب عروس الأفراح في شروح تلخيص المفتاح، وهو بهاء الدين أحمد بن على بن عبد الكافي السبكي الشافعي، أحد علماء القرن الثامن، توفي سنه 773 هـ.
13. القزويني، جلال الدين الخطيب القزويني، في الإيضاح في علوم البلاغة.
14. الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، طبعة دار الفكر.
15. ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تحقيق/ حفني محمد شرف.
16. المراغي، أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها.
17. الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، طبعة مكتبة الآداب، بالقاهرة.
18. فيود، بسيوني فيود، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع.
19. السيوطي، الحافظ جلال الدين السيوطي، في الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية.
20. طبانة، بدوي طبانة، في معجم البلاغة العربية، طبعة دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الرابعة سنة 1418 هـ، 1997 م.
21. الطيبي، شرف الدين محمد بن عبد الله الطيبي (ت 743هـ)، التبيان في البيان.
22. الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكه الميداني في كتابه، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، طبعة دار القلم بدمشق.
23. القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن "ت 739 هـ"، في الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق ودراسة د/عبد القادر حسين، طبعة مكتبة الآداب بمصر سنة 1416 هـ، 1996 م.

24. المطعني، عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر.
25. الجديلي، ربحي عبد القادر الجديلي، في كتابه، مناهج البحث العلمي.
26. موقع http://www.elsharawy.ebnmaryam.com/sharawy1/albakara/179.htm تم التصفح بتاريخ: 04/ 03/ 2016م.
27. شبكة النور المختار الإسلامي http://islamselect.net/mat/28562، تاريخ التصفح 3/ 3/ 2016م.